

الوالين في الطفيقة



مطبوقان بكنه تاعمر

العالمني في الطفيقة

تاليف

نجيب فيحفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

> دار مصر للطباعة سبيد جودة السعار وشركاه .

أصل الحكاية

ولدت الرغبة في أعقاب نظرة مفعمة بالإثارة ، والسفينة تشق طريقها ضدالتيار الهادئ القوى في أو اخر فصل الفيضان . بدأت الرحلة من مدينتنا سايس ماضية جنوبا إلى بانو بوليس لزيارة أختى التى استقر بها الزواج هناك . و ذات أصيل مررنا بمدينة غريبة ، مدينة تطل من أركانها عظمة غابرة ، ويزحف الفناء بنهم على جنباتها وأشيائها . مترامية بين النيل غربا ومحراب الجبل شرقا ، متعرية الأشجار ، خالية الطرقات ، مغلقة الأبواب والنوافذ كالجفون المسدلة ، لا تنبض بها حياة ولا تند عنها حركة ، يجثم فوقها الصمت و تخيم عليها الكآبة و تلوح في قسماتها أمارات الموت . أجلت فيها البصر فانقبض صدرى ، وهرعت إلى أبى حيث يسترخى على أريكة فوق المنصة مجللا بشيخوخته وسألته :

_ ما شأن هذه المدينة يا أبي ؟

فأجاب دون تأثر:

ــ مدينة المارق ، المدينة الكافرة الملعونة ، يامرى مون ..

فرجع البصر إليها بانفعال مضاعف وذكريات منثالة ثم سألت :

_ ألا يوجد بها حي ؟

فأجاب أبي باقتضاب :

_ ما زالت المرأة المارقة تتنفس في قصرها أو سجنها وهو الأصح ، كما يوجد بعض الحراس بلاريب ..

فغمغمت متذكرا:

_ نفرتیتی!

ترى كيف تعانى وحدتها وذكرياتها ؟!. وسرعان مااستعدت ذكريات صباى فى قصر أبى بسايس ، وحوار الكبار المحموم حول الإعصار الذى أطاح بأرض مصر ، والإمبراطورية ، وما سموه بحرب الآلهة ، وفرعون الشاب الذى مزق التراث والتقاليد وتحدى الكهنة والقدر . أجل تذكرت تلك الأيام المنسية ، وما قيل عن دين جديد ، والقدر . أبل تذكرت تلك الأيام المنسية ، وما قيل عن دين جديد ، والهزائم المريرة ، والنصر المقترن بالحزن . هاهى مدينة العجائب مستسلمة للموت ، هاهى سيدتها سجينة تتجرع الألم فى وحدة ، هاهو قلبى الشاب يدق بعنف طامحا لمعرفة كل شيء . وقلت لأبى : ها مئل ريح الشمال كى أعرف الحقيقة وأسجلها كما كنت تفعل فى صدر شبابك يا أبى . .

فرمقني أبي بعينيه الكليلتين وتساءل:

_ ماذا ترید یامری مون ؟

_ أريد أن أعرف كل شيء عن هذه المدينة وصاحبها ، عن المأساة التي مزقت الوطن وضيعت الإمبراطورية ..

فقال بجدية:

ــ ولكنك سمعت كل شيء في المعبد .

فقلت بحماس:

ــ قال الحكيم قاقمنا « لا تحكم في قضية حتى تسمع الطرفين »!

- الحقيقة هناو اضحة فضلاعن أن الطرف الآخر ، المارق ، قدمات . . فقلت بحماس متصاعد :

-- أكثر الذين عاصروه مازالوا أحياء ياأبى ، وجميعهم أقران لك وأصدقاء . فأى توصية منك لهم خليقة بأن تفتح لى مغاليق الأبواب ومكنون الأسرار ، بذلك أحيط بجوانب الحقيقة قبل أن يأتى عليها الزمن كما أتى على المدينة ..

وواصلت إلحاحي عليه حتى استجاب لرغبتي ، بل لعله تحمس لها في باطنه لسابق ولعه بتسجيل الحقائق ، ولرسوخه في العلم الذي جعل من قصر نا منتدى لرجال الدين والدنيا حتى عرف بين صحبه « بصاحب الأرض الطيبة والحكمة النادرة » ، كما عرف قصره بالندوات تروى بها الحكايات و تردد الأشعار و تمتد بها موائد البط والنبيذ .

وحرر لى رسائل توصية للكبار الذين عاصروا الأحداث ، من شارك فيها من قريب أو بعيد ، من ذاق حلوها ثم مرها ثم حلوها . وقال لى :

- اخترت سبيلك بنفسك يا مرى مون فاذهب في رعاية الآلهة ، أجدادك ذهبوا للحرب أو السياسة أو التجارة أما أنت فتريد الحقيقة ، وكل على قدر همته ، ولكن احذر أن تستفز صاحب سلطان أو تشمت بساقط في النسيان ، كن كالتاريخ يفتح أذنيه لكل قائل ولا ينحاز لأحد ثم يسلم الحقيقة ناصعة هبة للمتأملين ..

وسعدت جدا بالخلاص من الخمول والتوجه إلى تيار التاريخ الذى لا تعرف له بداية ولن يتوقف عند نهاية ، ويضيف كل ذى شأن إلى مجراه موجة مستمدة من حب الحقيقة الأبدية ..

كاهن آمون

رجعت طيبة إلى عهدها الزاهر بعد أن ذاقت مرارة الهجران والانطواء على عهد (المارق) : أصبحت العاصمة من جديد ، يزين عرشها فرعون الشاب توت عنخ آمون ، وعاد إليها رجال السلم والحرب، واستقر الكهنة في معابدهم. وعمرت القصور وغنت الحدائق وشمخ معبد آمون بأعمدته العملاقة وحديقته الزهراء، وماجت الأسواق بالباعة والنـاس والسلـع . كل شيء يتألـق بالعـزة والاستقرار ، وتيار السابلة لاينقطع . وكنت أزورهـا لأول مرة في حياتي فبهرني جلالها وأبنيتها وناسها الذين لايحيط بهم حصر ، واقتحمتني أصواتها ونداءاتها وعجلاتها ومحفاتها فتبدت لي بلدتي سايس بالمقارنة قرية خاملة خرساء . وقصدت في الموعد المضروب معبد آمون ، فاخترقت بهو الأعمدة في إثر خادم ثم ملت إلى دهليز جانبي أوصلني إلى الحجرة التي انتظرني بها الكاهن الأكبر . رأيته يجلس في الصدر على كرسي من الآبنوس ذي مقبضين من الذهب ، شيخا هرما حليق الرأس ، داخل نقبة طويلة واسعة ، يلف أعلاه بوشاح أبيض . وضح لي أنه رغم شيخو حته يتمتع بحيوية فائقة وقلب مطمئن . حيا أبي ونوه بإخلاصه قائلا:

_ عرفتنا المحنة بالمخلصين من الرجال .

. وأثنى على مشروعي متمتما :

- لقد حطمنا الجدران بما سجلت من أكاذيب ولكن الحقيقة يجب أن تسجل .

وحنى رأسه كالممتن وهو يقول:

-- اليوم يتربع آمون على عرشه ، ويقف في سفينته المقدسة بقدس الأقداس سيدا للآلهة ، حاميا لمصر ، رادعا لأعدائها ، ويسترد كهنته سيادتهم الشاملة ، هو الإله الذي حرر وادينا بيد أحمس ، ومد حدودنا شمالا و جنوبا و شرقا و غربا بيد تحتمس الثالث ، هو الإله الذي ينصر ويذل من يخونه .

فركعت إجلالا حتى أذن لى فجلست على مقعد منخفض بين يديه ، واستجمعت حواسى للإصغاء على حين راح الكاهن الأكبر يقول : — إنها قصة حزينة يا مرى مون بدأت فيما يشبه الهمس البرىء ، وجاءت البداية على يد الملكة العظمى أم المارق وزوجة فرعون العظيم أمنحتب الثالث . امرأة من الشعب لا يجرى في عروقها دم ملكى ، من أسرة نوبية ، وكانت قوية وداهية كأن في رأسها أربع أعين ترى الجهات جميعا في وقت واحد . وكانت في الظاهر تحرص على إرضائنا ومودتنا ، ولن أنسى قولها لى يوم احتفال بعيد النيل :

ــ أنتم الخير والبركة ياكهنة آمون ا

وكان من عادتها أن تحدق فى الرجال الأقوياء بعينيها النجلاوين حتى يحنوا الرءوس متعثرين فى ارتباكهم . ولم نتوجس منها حيفة ولا ننسى حب فراعين الأسرة المجيدة لكهنة آمون ، حتى وجدنا الملكة تهتم بتوسيع مجال الدراسات الدينية لتشمل ديانات الآلهة الآخرى وخاصة الإله آتون . ولم يعد الأمر فى ظاهره أن يكون زيادة فى

المعرفة بديانات نحترمها جميعا ونقدسها ، فلم نجد ثمة وجه للاعتراض ولكن ساءنا أن تحظى الآلهة بذلك الامتياز في طيبة موطن آمون . ولم يلطف من مشاعرنا مارددته تيى من أن آمون سيظل سيد الآلهة إلى الأبد كما أن كهنته سيظلون على رأس كهنة مصر بلااستثناء . وقال لى توتو الكاهن المرتل :

__ إنى أستشف وراء القرار سياسة جديدة لاشأن لها بالدين في ذاته !

فطالبته بمزيد من الإيضاح فقال:

_ الملكة العظمي تخطب ود كهنة الأقاليم لتقيم توازنا بيننا وبينهم فتحد من سلطان الكهنة وتقوى سلطة العرش .

فقلت له ولم أكن أخلو من الهواجس:

· ــ نحن خدام الإله والشعب ، نحن المعلمون والأطباء ، والمرشدون في الدنيا والعالم الآخر ، والملكة العظمي سيدة حكيمة وهي لاشك تقر لنا بالفضل .

فقال تو تو بامتعاض:

ـــ النزاع على السلطة ، والملكة قوية طموح ، وهي في رأيي أقوى من الملك نفسه !

فقلت وكأنما أناقش مخاوفي 🗓

ـــ نحن أبناء الإله الأعظم ووراءنا تراث أقوى من الدهر .

ولعله من المفيد الآن أن أحدثك عن الملك أمنحتب الثالث . لقد شيد له جده تحتمس الثالث إمبراطورية لم تسبق بمثيل في اتساعها و تعدد أجناسها. و كان ملكا قويا، يثب للدفاع عن أملاكه عند أول نذير

يخطر ، وحقق انتصارات حاسمة حتى دانت له الإمبراطورية بالطاعة الكاملة . غير أن عهده الطويل غلب عليه السلام والرخاء . جنى هو ثمار ما تعب أسلافه في زرعه فانهمرت عليه المحاصيل والثياب والمعادن والنساء ، وبنى القصور والمعابد والتماثيل ، وغرق حتى أذنيه في الطعام والشراب والنساء . وعرفت المرأة الداهية نقاط القوة والضعف في زوجها فاستثمرتها على خير ما يكون الاستثمار ، شجعته على الحرب حين الحرب ، وتسامحت معه في شهواته مضحية بقلبها كامرأة لتشاركه سلطانه بكل جدارة ، ولتمارس طموحها غير المحدود ، ولا أنكر أنها كانت ملمة بكل صغيرة و كبيرة من شئون مصر أو الإمبراطورية ، ولا أنكر إخلاصها و بعد نظرها وحرصها على سول لها أن تستغل الدين بنعومة و دهاء لتستأثر بالقوة للعرش دون الكهنة المعبد والعظمة ، ولكني آخذ عليها نهمها للسلطة ، ذلك النهم الذي سول لها أن تستغل الدين بنعومة و دهاء لتستأثر بالقوة للعرش دون الكهنة أجمعين . ثم تبين لي أن ثمة أفكارا أخرى تدور برأسها ، فقد زارت المعبد يوما لتقديم القرابين ، وتقدمتني بعد ذلك إلى مثوى الراحة بقامتها القوية المتوسطة ، فلما استقر بنا المجلس سألتني :

_ ماذا يحزنك ؟

وجعلت أفكر في الختيار رد مناسب ولكنها عاجلتني قائلة : __ إني أقرأ أسرار القلوب مثل الكهنة ، إنك تظن أني أرفع من شأن

الكهنة الآخرين على حساب كهنـة آمون ؟

فقلت مسلما:

كهنة آمون هم أمناء أسرتكم المجيدة ..

فقالت وعيناها تبرقان:

- ___إليك ما أفكر فيه أيها الكاهن الأكبر ، آمون سيد آلهة مصر ، وهو يقوم أمام رعايانا في الإمبراطورية رمزا للسلطة وربما للهزيمة ، أما آتون إلله الشمس فإنه يشرق في كل مكان وبوسع أى مخلوق أن ينتمى إليه دون غضاضة !

ترى أهذا حقا ما تفكر فيه أم أنه حجة جديدة تدارى بها رغبتها الحقيقية في تقليم أظافرنا ؟ على أن الفكرة نفسها لم تفز بإقناعى وقلت :

- _ مولاتي ، أولئك المتوحشون يحكمون بالقوة لا بالمودة ! فقالت باسمة :
- _ وبالمودة أيضا ، ما يصلح لمعاملة الوحوش لأ يصلح لمعاملة الحيوان المستأنس ..

وآمنت بأنها رؤية أنثوية عقيمة وقد تثمر عواقب وخيمة ، وهذا ماأثبتته الأحداث الأليمة فيما بعد .

وسكت الكاهن الأكبر كأنما ليثأمل أو ليتذكر ثم واصل حديثه: ـ ومما يذكر أنه صادفتها في مطلع حياتها الزوجية متاعب فلبثت مدة غير قصيرة لاتنجب ، تعاني المخاوف من شبح العقم ويضاعف من مخاوفها أصلها الشعبي ، وبفضل آمون وكهنته ، وبفضل الدعوات الصالحات والسحر القوى حملت الملكة ولكنها أنجبت بنتا 1. وكلما التقينا في القصر أو المعبد رمقتني بنظرة حذرة مترعة بسوء الظن كأنني المسئول عن سوء حظها . وماكنا نفكر في تعكير صفو العرش أبدا ولكنها كانت قليلة الثقة في الناس لفساد طويتها .

وسكت مرة أحرى كالمتردد ثم قال:

_ و بطريقة غامضة أنجبت ذكرين!

وتريث الرجل حتى اشتعلت تساؤلاتي الخفية ثم قال :

__ مات أكبرهما وأصلحهما وبقىي الآخر ليمارس شذوذه في تخريب مصر .

وقرأ الكاهن تساؤلاتي المحرقة فقال:

_ نحن نعرف كيف نصيد الحقيقة وإن امتنعت عن الكثيرين ، لنا من السحر قوة ، ولنا من العيون قوة .. فالمارق مجهول الأب ، فاقلد الرجولة ، مؤنث الصورة ، متنافر القسمات . وعلى مثال أبيه تزوج من فتاة من الشعب، جمعت في شخصها مثل أمه بين الأصل الشعبي والطموح الجنوني والفسق . جميلة عنيدة متحدية فاندفعت معه في سياسته المدمرة . وأنجبت له ست بنات من رجال آخرين . ورغم حبه الظاهر لها فلعله لم يحب في الواقع إلا أمه ، أعطته الحياة والأفكار ، ولشدة التصاقه بها شعر بوحدتها وآلامها فحنق على أبيه حنقا دعاه إلى الانتقام منه بعد موته فمحا اسمه من الآثار بحجة اقترانه باسم آمون ، أما الحقيقة فهي أنه أعدمه بعد مو ته بعد أن عجز عن قتله في حياته . وقد لقنته أمه دين آتون التي آمنت به لأهداف سياسية ولكنه آمن به إيمانا حقيقيا نابذا السياسة التي لم توافق طبيعته الأنثوية ، ومنه مرق إلى الكفر وهو ما لم تتوقعه أمه نفسها . ما زالت للأسف أتذكر صورته الكريهة .. ما كان رجلا وماكان امرأة ، وكان ضعيفا لحد الحقد على الأقوياء جميعا من رجال وكهنة وآلهة . وقد اخترع إلنها على مثاله في الضعف والأنوثة ، تصوره أبا وأما في وقت واحد ، وتصور له وظيفة وحيدة هي الحب !، فكانت عبادته رقصا وغناء وشرابا ، وغرق في مستنقع الحماقة معرضا

عن واجباته الملكية على حين كان رجالنا المخلصون في الإمبراطورية وأحلافنا الأوفياء يتساقطون تحت ضربات العدو ، يستغيشون ولا يغاثون ، حتى ضاعت الإمبراطورية وخربت مصر وخوت المعابد وجاع الناس . هذا هو المارق الذي سمى نفسه إخناتون !

وصمت الكاهن الأكبر تحت وطأة الانفعال وحدة الذكريات ثم شبك أصابع يديه في قبضة واحدة وراح يقول :

ـــومنذ نشأته الأولى جاءتنى الأخبار عنه بلسان رجال لى فى القصر ممن نذروا أنفسهم لآمون والوطن . وعنهم عرفت أن ولى العهد ينجذب نحو آتون ويهمل آمون ، وأنه رغم حداثة سنه يلوذ بخلوة على شاطئ النيل يستقبل فيها الشروق بالأغانى . أدركت لتوى أنه صبى غريب ينذر بالمتاعب . وسعيت إلى مقابلة العرش وأفضيت هناك للملك والملكة بمخاوفى . وابتسم أمنحتب الثالث وقال :

_ مازال ابني طفلا.

فقلت:

ـــ ولكن الطفل يكبر ويحتفظ فني أعماقه بأفكار طفولته .

فقالت تىي :

ــ إنه ينشد الحكمة في كافة مظانها بقلب برىء .

قال فرعون :

ــ عما قريب يبدأ تدريباته العسكرية ويعرف أهدافه الحقيقية .

فقالت تيي:

ـــ لاحاجة بنا إلى المزيد من البلدان ولكننا في حاجة إلى الحكمة للمحافظة عليها ..

فقلت بوضوح:

— لا سبيل إلى المحافظة عليها إلا بالاعتماد على آمون وممارسة القوة .

فقالت المرأة الداهية:

ـــ مارأيت حكيما يستهين بالحكمة مثلك ياكاهن آمون ا

فقلت بإصرار:

إنى لا أستهين بالحكمة ولكنى أراها لغوا بغير سند من القوة .

فقال أمنحتب:

_ لا خلاف في هذا القصر على أن آمون هو سيد الآلهة .

فقلت بقلق:

- إنه انقطع عن زيارة المعبد ؟

فقال الملك:

ــ صبرا ، عما قليل سيؤدى كافة واجباته كولى للعهد ..

لم أرجع من اللقاء بما يسكن الخواطر ، بل لعل مخاوفنا ــ نحن الكهنة ــ و جدت ما يسوغها و يقويها . و جاءتنا أنباء جديدة عن حوار دار بينه و بين و الديه أدركنا منه أن ذلك الجسد المهزول ينطوى على سراديب قوة و عناد شريرة تنذر بأو خم العواقب . و ذات يوم قابلني أحد أتباعي و قال لي :

ــ الشمس نفسها لم تعد إلها!

فسألته عما يعني فقال:

__ إنهم يتهامسون هناك عن إله جديد لم يعرف من قبل تجلى لروح ولى العهد وطالبه بأن يعبده باعتباره الإله الوحيد الحقيقي في الوجود ،

هو وحده لا شريك له ، وكل معبود سواه باطل .

صعقنى الخبر صعقا ، وأيقنت أن الموت الذى خطف الأخ الأكبر أهون وأرحم من الجنون الذى حل بالأصغر ، وتجسدت أمام عينى الكارثة في أبشع صورة .

- _ أأنت و اثق مما تقول ؟
- _ إنما أنقل إليكم ما يتهامس به الجميع .
- _ وكيف تجسد له ذلك الإله المزعوم ؟
 - _ سمع صوته فقط ..
 - _ لاشمس ولانجم ولاتمثال ؟
 - _ لا شيء ألبته .
 - _ و كيف يعبد ما لا يرى ؟
 - _ إنه يؤمن بأنه القوة الوحيدة الخالقة .
 - _ لقد أذاب المجنون ذاته في اللاشيء!
 - وقال الكاهن المرتل توتو:
 - _ لقد جن وفقد الأهلية لتولى العرش.

فقلت برجاء:

_ اهدأ يا توتو ، فمهما كفر فستظل الآلهة باقية معبودة للملايين . . فتسائل بحدة :

ـــ ولكن كيف يتولى العرش كافر مارق ؟

فقلت بكآبة:

_ فلننتظر حتى تعلن الحقيقة ثم نقدم على طرح الموضوع للمناقشة مع الملك، وسوف تكون المناقشة الأولى من نوعها في تاريخنا الطويل..

وحدث أن تزوج ولى العهد من نفرتيتى الابنة الكبرى للحكيم الصديق آى . كانت أيضا مثل الملكة العظمى تيى من أصل شعبى ولكنى تعلقت بأمل واحدراه وهو أن يرده الزواج إلى شيء من التوازن . ودعوت آى إلى مقابلتى فوجدته حذرا فى حديثه فقدرت حرج مركزه ولم أشر من جانبى إلى أنباء الكفر ، ولكنى اتفقت معه على أن يرتب لتدبير زيارة سرية تتم بينى وبين ابنته . وتأملتها بعين فراستى المستمدة من روح آمون فتكشف لى جمالها عن قوة ذكر تنى بالملكة العظمى تيى فرجوت أن تكون هذه القوة لنا لاعلينا . وقلت لها :

ـــ تقبلي بركاتي يا ابنتي و ابنة صديقي آي .

فشكرتني بعذوبة فقلت:

ـــ أرى من واجبى أن أذكرك ، ولست فى حاجة إلى تذكير ، بأن العرش يقوم على ثلاثة ، آمون سيد الآلهة ، وفرعون، والملكة .

فقالت:

_ سعيد من يصغي إلى حكمتك .

فقلت:

- والملكة الحكيمة تشارك الملك في المحافظة على الوطن والإمبراطورية .

فقالت بثيات:

... أيها الكاهن المقدس ، قلبي مليء بالحب والإخلاص .

فقلت بوضوح:

ـــ مصر مثوى التقاليد الخالدة ، والمرأة هي الوعماء المقـدس للتقاليد .

فقالت بالثبات نفسه:

ــ وقلبي مليء بالواجب أيضا .

يالها من حذرة متحفظة كتمثال بلا نقوش تفسره . لقد تكلمت ولم تقل شيئا ولم يكن بوسعى أن أكاشفها بأكثر من ذلك . غير أنها فى الحقيقة قد قالت أكثر من المتوقع . إن تحفظها يعنى أنها تعرف كل شيء . وأنها لن تكون معنا . إنها مرشحة للعرش بضربة حظ خليقة أن تدير أكبر رأس، وسيكون همها الأول فى الحياة المحافظة على العرش، لا آمون ولا الآلهة . وأقمت مع الكهنة صلاة للحزن فى قدس الأقداس ثم وافيتهم بفحوى الحوار بينى وبين نفرتيتى ، فقال تو تو معلقا :

ــ سينكشف الغد عن ليل طويل .

ثم خلا إلى متسائلا :

_ ألا تستطيع أن تناقش المستقبل مع القائد ماى ؟ فلمحت ما يرمى إليه وقلت بصر احة :

ــ لا نستطيع أن نتحدى أمنحتب الثالث والملكة العظمي تيي .

بدا أن الأمور لا تسير يسيرة في القصر بين المجنون ووالديه ، من أجل ذلك صدر أمر ملكي لولى العهد ليقوم برحلة تعارف في أرجاء الإمبراطورية . ولم أشك في أن الملك أراد أن يعرف ابنه رعاياه وأن يعيش الواقع لعله يفيق من ضلاله . وحمدت له ذلك في نفسي غير أن كآبتي ظلت راسخة . وفي أثناء الرحلة حدثت أمور على جانب كبير من الأهمية ، فقد أنجبت تبي توأمين هما سمنخ رع وتوت عنخ آمون ، بعد فترة تدهورت صحة الملك العجوز ومات . ورحل مبعوثون إلى ولي العهد بالأخبار ليرجع فيتولى سلطته . وتشاورنا نحن الكهنة حول

مستقبل البلاد فاتفقنا على رأى . وسعيت إلى مقابلة الملكة تبى رغم الحداد وانشغالها بتحنيط زوجها . وجدتها فى حزنها قوية ثابتة واعية بأهدافها . وكان على أن أصارحها بما جئت من أجله مهما كلفنى ذلك . قلت :

- جئت يا مولاتي لأفضى برأيي إلى الأم الشرعية للإمبراطورية .
- وأصغت إلى ومنظرها يوحى بأنها تحدس بفطنة ماسيقال.
- مولاتي ، أصبح معروفا أن ولى العهد قد كفر بجميع الآلهة .
 - فتجهم وجهها وقالت :
 - _ لا تصدق كل ما تسمع .
 - فقلت بلهفة:
 - إنى على استعداد لتصديق ما تقولين يا مولاتي .
 - فقالت باقتضاب:
 - ــ إنه شاعر أيها الكاهن الأكبر .
 - ولذت بالصمت بغير اقتناع فقالت بثقة :
 - _ سوف يعرف واجبه تماما .
 - فقلت مستجمعا شجاعتي:
 - ـــ مولاتي تعرف عواقب الكفر بالآلهة على العرش!
 - فقالت بضيق :
 - ـــ لا خوف على عبادة الآلهة!
 - فقلت مستزيدا من شجاعتي:
- _ أمامنا حل إذا مست الضرورة إليه وهو أن نولى أحد ابنيك الصغيرين وتكونين الوصية على العرش!

فقالت بحزم:

_ سيحكم أمنحتب الرابع لأنه ولى العهد .

هكذا غلبت الأم العاشقة الملكة الحكيمة وضيعت فرصة النجاة وأتاحت للقدر أن يضرب ضربته القاتلة .

ورجع ولى العهد المؤنث المجنون . ودفن الملك الأب في موعده ، وسرعان ماطلبت لمقابلته بصفته الرسمية . لأول مرة أراه عن قرب وأمعن فيه النظر . كان ذا سمرة غامقة ، وجسم طويل نحيل ، وعينين حالمتين ، وتكوين أنثوى لا يخفى على أحد ، أما ملامحه فمتنافرة مثيرة للقلق . إنه كائن هزيل حقير لا يليق بعرش ولا يتصور أن يتحدى بعوضة لا آمون سيد الآلهة . وداريت تفززى وعزيته مقتبسا من حكم الحكماء وشعر الشعراء ، وهو يرمقنى بنظرات محيرة . لا كراهية فيها ولا تحدولا ود . وشتت منظره فكرى لدرجة أن غلبنى الصمت فبادرني هو قائلا :

- طالما تسببت لي في مناقشات مرهقة مع والديّ!

فاسترددت قدرتي على الكلام فقلت:

ــ لاهم لي في النحياة إلا آمون والعرش ومصر والإمبراطورية ..

فقال بهدوء :

ــ لديك ما تقوله ولا شك .

فقلت وأنا أتأهب لخوض المعركة :

ــ سمعت أنباء مقلقة ولكني لم أصدقها

فقال بلا مبالاة:

__ إنها حقيقية !

فذهلت وانعقد لساني فواصل حديثه:

- إنى المؤمن الوحيد في بلد من الضالين .
 - _ لاأصدق أذنى .
 - بل صدقهما ، لا إله إلا الإله الواحد .

واقتحمني الغضب لعقيدتي فلم أعد أبالي بالعواقب دفاعا عن آمون وسائر الآلهة .

وقلت بصم احة مخيفة:

_ هذا تجديف لن يغفره آمون لبشم ...

فقال بهدوء باسم:

- لا يملك منح المغفرة إلا الإله الواحد .

فقلت وأنا أنتفض من شدة الأنفعال:

فبسط ذراعيه بحنان وقال:

ـــ هو كل شيء ، الخالق .. القوة .. الحب .. السلام .. السرور . ثم ثقبنى بنظرة نافذة تتناقض تماما مع هيكله الواهن :

ــ إنى أدعوك للإيمان به .

فقلت محذرا محتدا:

احذر غضب امون ، إنه قادر على المنع قدرته على العطاء ، قادر
 على العون قدرته على الخذلان ، قادر على التأمين قدرته على التدمير ،
 خف على رزقك وذريتك وعرشك وإمبراطوريتك .

فقال متماديا في الهدوء:

ـــ إنى طفل يحبو في رحاب الواحد ، وبرعمة تتفتح في حديقته ،

إنى راض بقدره خادم لأمره ، وقد تعطف فتجلى لروحى حتى أترعت بالأنوار وسالت بالأنغام . ولن أبالى بعد ذلك بشيء !

فقلت بغضب:

_ إن ولى العهد لا يصير فرعون حتى يتوج بين يدى آمون ! فقال باستهانة :

ــ بل يتوج تحت نور الشمس في رعاية الخالق الوحيد ..

وافترقنا على أسوأ حال . معى آمون والمؤمنون ومعه تراث أسرته المجيدة ومنزلته المقدسة عند رعاياه وجنونه الذى لايبالى بشيء . وتوثبت للحرب المقدسة موطنا نفسى على التضحية فداء لإلهى ووطنى . ولم أتوان عن العمل لحظة ، وقلت لأبنائى الكهنة :

_ فرعون الجديد كافر ، عليكم أن تعلموا بذلك وأن تعلموا الناس به ..

ورغم حماسى وجدتنى مسوقا إلى كبح جماح توتو الكاهن المرتل فاقترحت عليه الانضمام فى الظاهر إلى المارق ليكون عينا لناعليه . ومن ناحية أخرى فلم يتوان الملك أيضا عن العمل فتم التتويج فى رحاب الإله المزعوم وأصر بتشييد معبد له فى طيبة مدينة آمون المقدسة ، وراح يعرض دينه على الرجال ليختار معاونيه فأعلن صفوة مصر إيمانهم بدوافع شتى ولهدف واحد وهو تحقيق طموحهم على حساب عقيدتهم . ولو جاهر الرجال بالعصيان لتغير المصير ولكنهم سقطوا كالنساء الداعرات . هذا الحكيم آى اعتبر نفسه ضمن الأسرة فأسكره الجاه وأعماه ، وحورمحب الجندى الشجاع لم يكن صاحب عقيدة صادقة فكان الأمر بالنسبة إليه مجرد تغيير اسم لا معنى له ، أما الآخرون

فلم يكونوا سوى منافقين لا هم لهم إلا الجاه والمال . ولولا ارتدادهم عن غيهم فى اللحظة الحرجة لاستحقوا القتل ، وقد فازوا بالحياة ولكننى لا أكن احتراما لأى منهم . واشتد التوتر فى طيبة وانقسم الناس بين الولاء لآمون والولاء للمجنون سليل أعظم أسرة فى تاريخنا المحيد . وجزعت الملكة الوالدة تيى وهى ترى غرس يديها وهو يتحول إلى نبات سام ، وهو يتحدر نحو الهاوية جارا معه أسرته إلى الفناء . وواظبتُ على زيارة معبد آمون وتقديم القرابين محاولة تلطيف موجة التمرد العارمة التى تهدد باقتلاع العرش . وجعلت تقول لى : ميالولاء تكسبون و بالتمرد تخسرون . .

وكنت أقول لها:

کیف تطالبیننا بالولاء لکافر !، لیتکم آمنتم بنصائحی !
 فتقول لی :

ــ علينا أن نطرد اليأس من أفقنا!

لقد ثبت عجزها أمام ابنها المؤنث المدلل ، وانهارت قوتها التقليدية حيال قوة جنونه الخفية ، ولم يكن مفر من أن نواصل القتال حتى النهاية . من أجل ذلك ضاق المجنون بطيبة ، وترامت إلى مسمعه هتافات عدائية في عيد آمون ، فادعى أن إلهه أمره بالهجرة إلى مدينة جديدة تشيد من أجله . هكذا أجبرناه على الهجرة مصحوبا بثمانين ألفا من المارقين ليقيموا لأنفسهم سجنا تحل به اللعنة . وخلالنا الجو لإدارة معركتنا المقدسة ، وخلاله الجو للإمعان في الكفر والضلال حتى انقلبت العاصمة الجديدة مدينة للملاهي والسكر والعربدة والفسق التي يبشر بها إله مجهول الهوية شعاره الحب والسرور !. وكلما ألح على

المجنون ضعفه الطبيعي غالى في إظهار قوته فأمر بإغلاق المعابلد ومصادرة الآلهة وأوقافها وتشريد الكهنة .

ــ لا قيمة للحياة بعد إغلاق المعابد فأحبوا الموت .

وقد وجدنا في بيوت المؤمنين مأوى وفي قلوبهم جيوشا فواصلنا الجهاد بهمة متصاعدة وأمل يقترب من الشروق يوما بعد يوم . و تمادى المارق فقام بزيارات إلى الأقاليم داعيا شعبه إلى الكفر ، وشد ما عانى الشعب في تلك الأيام السود من تمزق بين ولائه لآلهته وولائه لملكه الذي أذهلهم بجسمه المتهافت وطابعه الأنثوى ووجهه المنفر و زوجته الجميلة الفاسقة .

تلك كانت أيام الأحزان والعذاب والنفاق والندم والدموع المنهمرة والرعب من غضب الآلهة . وأحدثت رسالة الحب المؤنث آثارها فاستهتر الموظفون بواجباتهم واستغلوا الناس أبشع استغلال ، وسرى التمرد في أنحاء الإمبراطورية ، واستهان بحدودها الأعداء ، واستغاث بنا الأمراء المخلصون فأرسلت إليهم الأشعار بدلا من الجيوش فقتلوا دفاعا عن إمبراطوريتنا وهم يلعنون الخائن المارق المجنون . وتوقف الخير المتدفق على أرض مصر من جميع البلدان حتى خلت الأسواق وأفلس التجار وجاع العباد . وصحت بأعلى صوتى :

__ ها هي لعنة آمون الغاضب تحل بنا فإما القضاء على المارق وإما الحرب الأهلية .

ولم أدع فرصة للخير لم أجربها لتجنيب البلاد ويلات الحرب فقابلت الملكة الأم تيى ، وقالت لى بحرارة :

إنى حزينة أيها الكاهن الأكبر

فقلت بمرارة:

ــ لم أعد كاهنا أكبر ، لست إلا شريدا مطاردا ..

فقالت ملعثمة:

إنى أسأل الآلهة أن تمدنا برحمتها .

فقلت لها:

-- لا بد من العمل ، إنه ابنك ، وهو يحبك ، وإنك تتحملين تبعة لا يستهان بها فيما انتهت إليه الأمور فبادريه بنصحك قبل أن تنشب حرب أهلية لن تبقى على شيء ..

فقالت بامتعاض لتذكيري لها بمسئولياتها فيما حدث:

ــ لقد قررت السفر إلى العاصمة الجديدة أخت آتون ..

ولاأنكر أنها بذلت جهدا ولكنها لم تستطع أن تصلح ما أفسدت ، ولم أستسلم لليأس فسافرت بنفسي مجازفا إلى أخت آتون واجتمعت بالرجال وقلت لهم :

_ إنى الآن أتكلم من موقع القوة ، وورائى رجال ينتظرون إشارة للانقضاض عليكم ، ولكنى آثرت أن أحاول محاولة أخيرة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه دون سفك دماء أو خراب ، وسأترك لكم مهلة لتؤدوا واجبكم وترجعوا إلى ضمائركم ..

وقرأت في وجوههم الاقتناع بما قلت ، وبصرف النظر عن دوافعهم الحقيقية فقد أدوا ما طالبتهم به وجنبوا البلاد شر ويلات كثيرة . قابلوا المارق المجنون وطالبوه بأمرين عاجلين ، إعلان الحرية الدينية وإرسال جيش للدفاع عن الإمبراطورية.ولكنه رفض معلنا بذلك جنونه على الملاً . وعند ذاك طالبوه بالتنازل عن العرش وله أن يحتفظ بعقيدته بل

وأن يدعو إليها كيفما شاء ولكنه رفض أيضا . غير أنه عين أخاه سمنخ رع شريكا له في العرش ، فتجاهلنا أمره واخترنا توت عنخ آمون ليجلس على العرش مختارا منا . وبإزاء عناد المجنون قرر الرجال هجره و هجر مدينته وإعلان و لائهم لفرعون الجديد ، بذلك تغيرت الدولة بلا حرب ولا خراب، وفي نظير ذلك عدلنا عن الانتقام من المجنون وزوجته ومن أبقى على الوفاء له من رجاله .

و فتحت المعابد أبوابها وهرع إليها المؤمنون بعد حرمان طويل ، وانقشع الكابوس ومضى كل شيء يعود إلى أصله على قدر الإمكان . أما المارق فبعد أن شبع جنونا أدركه المرض وما لبث أن مات خائب المسعى في الدنيا وفاقد الأمل في العالم الآخر ، مخلفا وراءه زوجته الشريرة تعانى الوحدة والهجر والندم .

وصمت الرجل طويلا وهو يرنو إلى ثم قال:

- نحن نضمد جراحنا ، يلزمنا عمل كبير وشاق ، خسارتنا في الداخل والخارج أكبر من أن يحيط بها حصر ، كيف حدث هذا ؟!.. كيف أتيح لمجنون مشوه أن يفعل بنا ذلك كله تحت سمع العقلاء وبصرهم ؟!

وتريث قليلا ثم خاطبني قائلا:

ـــ لقد كشفت لك عن الحقيقة خالصة بلا تزويق ولا تشويه فسجلها في دفترك بأمانة ، وأبلغ تحياتي والدك .

هو الحكيم ، أبو نفرتيتي وموت نجمت ، ومستشار المارق . حفر الكبر أخاديد في وجهه وسكن فيها ، استقبلني في قصره المطل على النيل في جنوب طيبة . جرى حديثه في هدوء وبصوت منخفض ودون أن ينبض وجهه بأى انفعال . وقد أثر في وقاره وعمره المديد وما يطوى في صدره من تاريخ حافل . بدأ حديثه بقوله :

ــ ما أعجب الحياة ، إنها سماء تمطر تجارب متناقضة .

وتفكر مستغرقا بفيض من الذكريات ثم قال:

.... التحمت بالأحداث في يوم من أيام الصيف ، دعيت إلى مقابلة الملك أمنحتب الثالث والملكة العظمي تيي ، ولما مثلت بين يديهما قالت لي الملكة :

_ يا آى ، أنت رجل حكيم ، تعرف أجمل ما في الدنيا والدين ، قررنا أن نعهد إليك بتربية ابنينا تحتمس وأمنحتب ..

فحنيت رأسي الحليق وقلت:

ــ سعيد من يحظى بخدمة مولاه ومولاته .

وكان تحتمس في السابعة وأمنحتب في السادسة . وكانا جد مختلفين لحد التضاد ، فتحتمس قوى وسيم قصير القامة ، وأمنحتب ضعيف البنية غامق السمرة طويل القامة أنثوى القسمات وذو نظرة رقيقة وغازية معا تلتصق بالنفس بعمق . وما لبث أن مات الصبي الجميل وبقى الضعيف الغريب . وهز الموت الصبي الحي هزة عنيفة جدا . بكي

طویلا ، و کلما خطرت ذکری بکی من جدید . وقال لی :

ــ كان يزور معبد آمون ، ويتلقى الرقا والتعاويذ ولكنه مات .. وقال لى أيضا :

> - وأنت الحكيم المعلم فلم لاترد إليه الحياة ؟ وقلت له:

ـــ إن الروح تقول للميت « ألق عنك هذا الحزن أيها الأخ ، إننى باقية » .

وجرنا ذلك إلى حديث عن الحياة والموت ، وشد ما أدهشنى الميادر اكه ووجدانه . كان يفوق سنه بأجيال . وساءلت نفسي أي صبى هذا ؟!. أجاء معه من المجهول بأقباس من حكمة الغيب ؟. وقد أتقن مبادئ القراءة والكتابة والحساب بسرعة مذهلة حتى قلت مرة للملكة تبي :

ــ إن تفوقه ليخيف معلمه .

وكنت أهرع إلى درسه بشغف وشوق وسرور وأتخيل ما يصدر عن عقله من عجائب إذا ما اعتلى يوما عرش أجداده . سوف يتفوق على والديه رغم عظمتهما .

أجل كان أمنحتب الثالث ملكاعظيما ، بدّار التأديب العصاة ، مقبلا وقت السلم على الطعام والشراب والنساء في عصر عرف بالرخاء ، وقد أنهكه ذلك قبل الأوان فوقع في أسر العلل وفسدت أسنانه فكدرت صفو أيامه الأخيرة . أما تيى فكانت من أسرة نوبية كريمة ، وشهدت لها الأيام بالقوة والحكمة حتى بزت حتشبسوت نفسها . وبسبب من غرام زوجها بالنساء ولموت بكريها تحتمس ولعت بالصبى الضعيف

المعجزة ولعا خرق المألوف فكانت له الأم والحبيبة والأستاذ . وكانت تحب الحكم أكثر من الحب فضحت بقلبها في سبيل السلطة ، وقد اتهمها الكهنة ظلما بأنها المسئول الأول عن انحراف ابنها الديني ، ولكن الحق أنها أرادت أن يلم ابنها بديانات آلهة بلاده جميعا ، وكانت تحلم بأن يحل آتون محل آلهة الإمبراطورية باعتباره الشمس التي تنفث الحياة في كل مكان ، فتؤلف بين رعاياها برابطة الدين القوية لا بدافع القوة وحدها . كانت ترمي إلى وضع الدين في خدمة السياسة من أجل مصر ، ولكن ابنها آمن بالدين دون السياسة بخلاف ما قصدت ، وأبت طبيعته أن يجعل الدين في خدمة أي شيء وأن يجعل كل شيء في خدمة والدين . الأم طرحت سياستها عن وعي و تدبير ولكن الابن صدق و آمن وكرس حياته لرسالته حتى ضحى بوطنه وإمبراطوريته وعرشه .

وسكت آى قليلا فحبك وشاحه الأزرق حول صدره وقد بدا و جهه صغيرا مضغوطا تحت شعره المستعار ثم واصل حديثه :

- كان فذا منذ صباه كأنما ولد بعقل كاهن ناضج ، كان معجزة حتى وجدتنى فى كثير من الأحايين أناقشه مناقشة الند للند وهو فى العاشرة . وكان الحماس يتدفق من منطقه كأنه ينابيع ساخنة ، وبرزت فى الهيكل الضعيف إرادة قوية لا تتوافق بحال مع ضعفه ، فأقنعنى ذلك بأن روح الإنسان أقوى من عضلاته المشدودة المدربة آلاف المرات . وهام بالدروس الدينية هياما فاق كل توقع وأضر بالإعداد اللازم له للجلوس على العرش . ولم يكن يسلم بفكرة دون مناقشة قوية ، ولم يخف ارتيابه فى كثير من الحقائق والتعاليم الموروثة . وإذا به يقول لى يخف ارتيابه فى كثير من الحقائق والتعاليم الموروثة . وإذا به يقول لى ذات يوم :

-- طيبة !، تقولون إنها المدينة المقدسة !، إنها وكر التجار الجشعين والفسق والعهر ، ومن هم هؤلاء الكهنة الكبار يا معلمى ؟، ألا إنهم من يضلون البسطاء بالخرافات ، ويشار كون الفقراء في أرزاقهم المحدودة ، ويغوون الفتيات باسم البركة ، فجعلوا من معبدهم مرتادا للدعارة والعربدة ، عليك اللعنة ياطيبة !

وأقلقني قوله ، وتخايلت لعيني أصابع الاتهام وهي تشير إليّ بوصفي معلمه ، فقلت له :

ـــ إنهم الأساس المتين الذي يقوم عليه العرش .

فهتف غاضبا:

ـــ لاكرامة لعرش يقوم على الكذب والفجور .

فقلت كالمحذر:

_ إنهم قوة لا يستهان بها مثل الجيش . .

فهتف ساخرا:

_ وقطاع الطرق أيضا قوة لا يستهان بها .

من بادئ الأمر لم ينشرح صدره لآمون الثاوى في قدس الأقداس ، فتطلع إلى آتون الذي يضيء نوره العالمين ، وقال في ذلك :

_ آمون إله الكهنة ، آتون إله السماء والأرض .

فقلت بحرارة:

_ إنك مطالب بالإخلاص لجميع الآلهة .

فتساءل مقطبا:

ـــ أليس لنا قلوب نميز بها بين الحق والباطل ؟

فقلت بإغراء:

ـــ سوف تتوج ذات يوم بين أحضان آمون .

فبسط ذراعيه النحيلتين متسائلا:

ــ ولم لا أتوج تحت نور الشمس في الهواء الطلق ؟!

_ أمون هو الذي ساند جدك حتى قيض له النصر .

فتفكر مليا ثم تساءل:

ــــ لا أدرى كيف يعين إله على ذبح مخلوقاته ؟ فقلت بقلق :

ــ له حكمته المضنون بها على البشر.

ــ الشمس لايفرق نورها بين مخلوق وآخر .

فقلت بإصرار :

_ الحياة ميدان صراع ، لا تنس ذلك .

فقال بأسى :

ــ يامعلمى لا تحدثنى عن الصراع، ألم تشهد الشمس عند شروقها فوق الحقول والنيل؟! ألم تر الشفق عند المغيب ؟، ألم تسمع تغريد البلابل ؟، وهديل الحمام ؟.. ألم تقتنص أبدا الفرحة المقدسة الغائبة في أعماق حياتنا ؟!

شعرت بأن الزمام يفلت من يدى ، وأن الشجرة تنمو على هواها ، وأننى أَجَر إلى مأزق ، فأفضيت بمخاوفي إلى الملكة تيى ، ولكنها لم تشاركني قلقي وقالت لي :

_ یا آی ، مازال طفلا بریئا ، سوف یخبر الدنیا ، وعما قلیـل سیتلقی تدریبه العسکری .

ودعى الكاهن الصغير إلى الجندية الخاصة ضمن أبناء السادة النبلاء

وحزن لذلك أبوه حزنا شديدا وقال لي:

ــ إن الملك الذي لا يحسن القتال يقع تحت رحمة قواده .

وحدثنى الفتى عن مشاحنات نشبت بينه وبين أبيه ، ولعله منذ ذلك الوقت ترسبت فى أعماقه مشاعر غير طيبة عن أبيه العظيم ، وهى التى غالى الكهنة فيما بعد فى تفسيرها متهمين إياه بقتل أبيه بعد موته بمحو اسمه من الآثار ، والحق أنه لم يمح اسم أبيه إلا لاقترانه بآمون ، وآى ذلك أنه أعدم اسمه القديم واتخذ اسما خديدا هو « إخناتون » . ثم بلغ ذروة غربته مقتلعا نفسه من كافة جذوره فى ليلة غريبة لم يطلع عليها مواه . تم ذلك فى الخلوة التى كان ينتظر فيها الشروق بحديقة القصر المطلة على النيل . وعلمت بما كان عندما لقيته فى الحديقة فى الصباح . أغلب الظن أننا كنا فى الربيع فى يوم برىء من الرطوبة والخماسين .

رنا إلىّ بوجه شاحب وعينين مسحورتين وقـال لى دون أن يرد تحيتى :

ــ يا معلمي ، قد تجلي الحق !

عجبت لمنظره وسألته عما يعني فقال :

- كنت في الخلوة قبيل الشروق ، رفيق الليل يودعني والصمت يباركني ، وخف وزنى فخيل إلى أننى سأمضى مع ذيـول الليـل ، وتجسدت الظلمة كائنا حيا يومئ بالتحية ، وأشرق في داخلي نور طيب

الرائحة ، فرأيت الكائنات كلها مجتمعة في مجال تحيط به العين ، تتهامس متبادلة التهانى تهزها سعادة الترحيب ، وتستقبل الحقيقة المقبلة ، وقلت لنفسى أخيرا انتصرت على الموت والألم ، وانهلت فوقى فيوضات السرور ، وتسلل الوجود إلى صدرى فملأه برحيقه العذب ، وسمعت بكل وضوح صوته وهو يقول لى « أنا الإله الواحد ، لا إله غيرى ، أنا الحق ، اقذف بروحك في رحابي ، اعبدنى وحدى ، وهبنى ذاتك فقد وهبتك حبى » .

تبادلنا النظر طويلا . غلبني الصمت ، واليأس . قال :

_ ألا تصدقني يا معلمي ؟

فقلت صادقا:

_ إنك لا تكذب أبدا.

فقال بنشوة عجيبة:

__ إذن فعليك أن تصدقني .

فسألته بلهفة:

_ وماذا رأيت ؟

ـــ سمعت الصوت في مهرجان الفجر ..

فقلت بعد تردد:

ـــ هذا يعني أنه لاشيء .

فقال بيقين:

_ هكذا يتراءى الكل إذا تجلى !

ـــ لعله آتون .

__ كلا ، لا آتون ولا الشمس ، إنه ما وراء ذلك وما فوق ذلك ، إنه الإله الواحد .

فتساءلت في حيرة:

__ وأين تعبده ؟

_ في أي مكان ، في أي زمان ، وسوف يمدني بالقوة والحب ..

ولاذ آى بالصمت . وددت أن أسأله إن كان آمن بإل إخناتون .

ولكنى تذكرت وصية أبى فأمسكت . لقد ارتد في اللحظة الحرجة مع المرتدين وربما ظل إيمانه سرا إلى الأبد . واستأنف آي حديثه قائلا :

_ لم أجد بدا من إبلاغ الملك والملكة بما كان . وبعد أيام وجدت

الأمير ينتظرني في الحديقة التي يفضل البقاء فيها ما أمكنه ذلك ، فقال لى معاتبا و باسما :

_ وشیت بی کعادتك یا معلمی .

فقلت بهدوء:

ـــ إنه واجبى أيها الأمير .

وضحك قائلا:

ــ استدعاني أبي لمقابلة مثيرة ، فرويت له تجربتي فعبس قائلا :

ــ لا مفر من عرضك على الطبيب بنتو .

فقلت له بأدب:

_ إنى في تمام الصحة والعافية .

فقال بخشونة:

_ لاأعرف مجنونا اعترف بجنونه أبدا .

. ثم بنبرة وعيد:

... مصر بلد الآلهة ، وعلى صاحب العرش أن يعبد جميع آلهة شعبه ، وهذا الإله الذي تحدثني عنه لا شيء فهو لا يستحق أن ينضم إلى مجمع الآلهة .

فقلت بهدوء:

- إنه الإله الوحيد ولا إله غيره .

فصاح بي :

ـــ هذا كفر وجنون .

فكررت قولى حتى قال بنبرة غاضبة منذرة بالشر:

ـــ إنى آمرك بأن تتخلى عن أفكارك وأن ترجع إلى تراث أجدادك .

وانقطعت عن المناقشة احتراما لأمره ، وقالت الملكة بنبرة لطيفة :

ـــ إنك مطالب باحترام واجب مقدس ولينبض قلبك بما يشاء حتى تثوب إلى الهداية . .

وغادرت مجلسهما حزينا يامعلمي ولكن أشا. أصرارا ..

فقلت له بإخلاص:

- فرعون نسيج محكم من التقاليد المقدسة ، لا تنس هذا أبدا .

وحدثنى قلبى بأن مصر ستشهد متاعب لم تخطر ببال ، وأن هذه الأسرة المجيدة التى حررت الوطن وأنشأت له إمبراطورية إنما تقف على حافة هاوية . وفي ذلك الوقت ، وربما قبل ذلك فلست متأكدا من ترتيب التواريخ استدعاني كاهن آمون إلى مقابلة خاصة . قال لى :

_ بيننا عهد قديم يا آي ، ما هذا الذي يقال ؟

قلت لك إننى لا أذكر اليوم إن كانت تلك المقابلة قد تمت عقب (م ٣ ــ العائش في الحقيقة)

ما ذاع عن ميل الأمير لآتون أم عقب إيمانه بالإله الواحد . على أى حال قلت له :

... الأمير يمر بالفترة الحرجة من العمر ، إنه إنسان ممتاز ، ومثله قد يدفعه الخيال شرقا وغربا ، ولكن سرعان ما يرجعه النضج إلى الحق . . فتساءل بمرارة :

_ وكيف تمرد على حكمتك وأنت خير المعلمين ؟ فقلت مدافعا عن نفسي :

_ ما أصعب ترويض النهر في إبان الفيضان!

فقال بصوت قوى :

ـــ على أى رجل من صفوة هذه الأرض ألا يغفل لحظة عن مصير العقيدة والوطن والإمبراطورية !

وجعلت أناجى حيرتى ليل نهار منفردا ومع أسرتى المكونة من تى زوجتى ونفرتيتى وموت نجمت ابنتى . وعلى حين اتهمت تى وموت نجمت الأمير بالضلال إذا بنفرتيتى تنجذب إلى آرائه بتلقائية مثيرة ، وتهمس في أذنى :

_ إنه الحق يا أبي !

ولا بد من كلمة هنا عن نفرتيتى . كانت تقارب إخناتون في سنه ، ومثله حازت عقلا يفوق سنها . وقد تلقت البنتان تربية عامة ومنزلية ممتازة ، ولكن موت نجمت قنعت بتجويد القراءة والكتابة والحساب وشيء من اللاهوت إلى الحياكة والتطريز والطهى والرسم والرياضة والرقص الدينى ، أما نفرتيتى فمع إتقانها ذلك كله تبحرت بدافع شخصى في الدين والأفكار . ثم كان ميلها إلى آتون ، والأعجب من

ذلك كله أنها آمنت بإله إخناتون وقالت بصراحة :

_ هذا هو الإلله الذي انتشلني من حيرتي المعذبة .

وأثارت بذلك سخط تي مريبتها وأختها غير الشقيقة موت نجمت التي أتهمتها بالضلال .

وحدث فى ذلك الوقت أن احتفل الملك بمرور ثلاثين عاما على جلوسه على العرش فذهبنا إلى القصر واصطحبنا البنتين معنا لأول مرة . وشاء القدر أن تستحوذ نفرتيتي على قلب الأمير ، وهكذا تزوجت من إخناتون ونحن نتابع الأحداث بذهول ولا نصدق ما يقع . واستدعاني كاهن آمون مرة أخرى وقال لى بنبرة ذات مغزى :

_ أصبحت عضوا في الأسرة المالكة يا آي .

وشعرت بأنه يوشك أن يعدني من الخصوم فدافعت عن الأمير ما وسعني ذلك وقلت له :

_ إنى رجل لم يحد طيلة عمره عن الواجب .

فقال بهدوء:

_ لندع الأيام تكشف لنا عن معدن الرجال!

وطلب منى أن أعد مقابلة بينه وبين نفرتيتى ففعلت بعد أن زودت ابنتى بالوصايا . ولكنها والحق يقال لم تكن فى حاجة إلى وصاياى فأسمعته كلاما جميلا دون أن تكشف عن سر أو تلتزم بعهد . وأعتقد أن عداء الكهنة لابنتى بدأ مع تلك المقابلة .

وقالت لى نفرتيتى :

ـــ لم تكن مقابلة يا أبى ولكنها كانت مبارزة غير معلنة ، الداهية يدافع عن الإمبراطورية على حين أنه يدافع في الواقع عن نصيب معبده

من الأغذية والكساء والخمور ،

وتراكمت في الأفق سحب الكآبة ، واشتد النزاع بين الملك وولى العهد ، وأخيرا استدعاني الملك وقال :

__ أرى أن يقوم الأمير برحلة في أرجاء الإمبراطورية ليخبر بنفسه الحياة والناس ..

فقلت باقتناع :

_ فكرة طيبة يامولاي ا

كان الملك يقضى فى ذلك الوقت أسعد أيامه الأخيرة مع عروس فى سن أحفاده هى تادوخيبا بنت توشراتا ملك ميتانى ، وإن كانت وبالا على صحته !. أما إخناتون فقد غادر طيبة مصحوبا ببعثة من صفوة الرجال . كانت رحلة عجيبة حافلة بالإثارة . سعى إلى عبيده فى الميادين والحقول ملقيا عليهم مودة وبشاشة أذهلتهم ، وكانوا ولا شك يتوقعون أن يمثلوا بين يدى إله جبار ينظر إليهم من عل أو لا ينظر إليهم على الإطلاق . ودعا إلى لقائه رجال الدين فى الولايات المختلفة ولم ين عن تسفيه عقائدهم وإدانة الطقوس التى تبيح تقديم قرابين من البشر . وبشر بإلهه الواحد، القوق بين رعاتهم ونبلاء مصر . كما دعا إلى الحب والسلام والسرور مؤكدا أن الحب هو قانون الحياة ، وأن السلام هو الهدف ، وأن السرور هو شكر المخلوق لخالقه .

فى كل مكان أثار الذهول والانفعالات الجنونية . وبلغ منى الذعر مداه فقلت له : ـــ أيها الأمير ، إنك تقتلع الإمبراطورية من جذورها ، وتشرها في الهواء .

فتساءل ضاحكا:

- متى يدخل الإيمان قلبك يامعلمي ؟

فقلت بمرارة:

ــ لقد هاجمت الديانات التي جرى أجدادى على احترامها ، وأعلنت المساواة والحب والسلام ، ولن يعنى هذا بالنسبة للرعايا إلا فتح باب التمرد وشق عصا الطاعة ..

وتفكر مليا ثم تساءل:

ــ لماذا يؤمن العقلاء بالشر بكل هذه القوة ؟!

فقلت بتسليم:

ـــ نحن نؤمن بالواقع .

فقال باسما:

ــ يامعلمي ، سأعيش في الحق إلى الأبد ..

وإذا برسول يلحق بنا وينعي إلينا الملك العظيم أمنحتب الثالث .

非非常

وهنا سرد على أنباء العودة ، والجنازة ، وجلوس الأمير على عرش أجداده باسم أمنحتب الرابع ، ونفرتيتى شريكته بوصفها الملكة العظمى ، وكيف دعاهم الملك الجديد فعرض عليهم دينه وكيف أعلنوا إيمانهم به ، وكيف عين نتيجة لذلك ماى قائدا لجيش الحدود ، وحور محب قائد للحرس ، وهو _ آى _ مستشارا للعرش . وقد ورث الملك حريم أبيه كالمتبع فأحاطه بالرعاية والزهد ! . كما أمر

بتخفيف الضرائب وبإحلال الحب محل العقاب . وكيف توتر الجو بينه وبين كهنة آمون حتى أمره إلهه ببناء عاصمة جديدة له . وقد وقف آى عند إعلان الرجال إيمانهم بالإله الجديد وقفة تأمل فقال لي :

ـــ ستسمع عن ذلك أقوالا متضاربة ولكن لاعلم لأحد بأسرار القلوب !

وبدا أنه شعر بأنه مطالب بالكشف عن سر قلبه هو فقال :

- عن نفسى آمنت بالإله الجديد باعتباره إللها يمكن ضمه إلى بقية الآلهة ، وكنت أرى أنه لا يجوز التعرض إلى حرية العقيدة ! وقال معلقا على سياسة الحب إنه قال لمولاه :

ــ عندما يأمن الموظف من العقاب سيقع في الفساد ويسوم الفقراء سوء العذاب .

ولكن الملك قال له بيقين:

ـــ مازلت ضعيف الإيمان وسوف ترى بنفسك ما يفعله الحب ، ولن يخذلني إللهي أبدا .

* * *

وقال آی مواصلا حدیث :

ــ انتقلنا إلى أخت آتون العاصمة الجديدة ، لم ولن ترى العين أجمل منها ، وأقيمت أول صلاة بالمعبد القائم في وسط المدينة ، وأمسكت نفرتيتي بالطنبور متألقة الشباب والجمال وراحت تغنى بصوت رخيم :

ياحى يامبــــدئ الحيـــاة ملأت الأرض كلهــا بجمــالك وقـــد قيدتنــا بحـــبك! واستقبلنا أياما أعذب من الأحلام ، حافلة بالهناء والسرور والحب والرخاء . وتفتحت القلوب حقا للإيمان الجديد . ولكن الملك لم ينس رسالته . وباسم الحب والسلام والسرور خاض أشرس حرب ابتليت بها مصر . فما لبث أن أمر بإغلاق المعابد ومصادرة الآلهة ومحو أسمائها من الآثار ، حتى اسمه غيره ، وقام برحلاته المشهورة في أنحاء البلاد داعيا إلى دينه ، دين الواحد والحب والسلام والسرور . وعجبت لاستقبال الناس له في كل مكان بالحماس والحب . وانطبعت صورته وصورة فرعون آخر من الفراعين الذين سمع الناس عنهم ولم يروهم .

ثم أخذت الأحزان تزحف ، مترددة أول الأمر ثم انهلّت كالشلال . مدت قبضتها أول مامدت إلى أحب بناته إلى قلبه ، ابنته الثانية ، ميكيتاتون الجميلة ، فجزع لموتها جزعا شديدا ، وبكاها بدموع غزيرة أشد مما بكى أخاه تحتمس فى صباه ، وجعل يصرخ من قلب مكلوم :

ــ لماذا يا إلهي .. لماذا يا إلهي ؟!

حتى توهمت أنه على وشك الكفر به . ثم ذاعت أنباء الفساد في دواوين الحكومة والأسواق ، وترامى إلى الأسماع أنين الفقراء . ثم جاءتنا أخبار الإمبراطورية بتمرد الولايات وتحرش الأعداء بالحدود حتى قتل صديقنا توشراتا ملك ميتاني. . والد بادوخيبا . وقدمت نصيحتى قائلا بالحاح :

__ لا بد من التطهير في الداخل وإرسال جيش الحدود للدفاع عن الإمبر اطورية ..

ولكنى وجدته صامدا ثابتا لايتغير ولاييأس. قال لى :

_ سلاحي الحب ياآي ، اصبر وانتظر ..

كيف أفسر هذه الظاهرة الغريبة ؟

الكهنة يتهمونه بالجنون ، وبعض رجاله شاركوهم في هذا الاتهام في الأيام الأخيرة من الأزمة . ولقد حرت في أمره ولكنني رفضت وما زلت أرفض ذلك الاتهام . لم يكن مجنونا ، ولكنه لم يكن أيضا مثل سائر العقلاء ، كان شيئا بين هذا وذلك لم أعرف كنهه . وزارتنا الملكة الوالدة تبي وسر الملك بالزيارة سرورا فاق كل تصور ، واستقبلها استقبالا لم تشهد أخت آتون له مثيلا . ونزلت الملكة في قصر شيد لها خصيصا في جنوب أخت آتون وظل خاليا في انتظارها . واستدعتني فاجتمعت بها وقد ساءني أن ألاحظ تدهور صحتها وغلبة الكبر عليها أضعاف ما تقتضيه سنها الحقيقية . قالت :

ـــ جئت لحديث طويل معه ولكني رأيت أن أمهد لذلك بحديث مع رجاله .

فقلت:

ـــ لم أقصر في واجبي كمستشار أمين .

فقالت :

... أصدقك يا آى ، ولكن تراثنا لا يمكن أن يضيع هدرا ، ولكنى أريد أن تصارحني بأمانة ، هل تظل وفيا لابني مهما حدث ؟

فقلت بصدق:

- لا يداخلك شك في ذلك .

. ــ هل يمكن أن تفترق عنه عند نقطة معينة ترى أنها تعفيك من الولاء ؟

فقلت بإخلاص :

ـــ إنى عضو في أسرته فلا أتخلى عنه أبدا .

فقالت متنهدة:

ـــ شكرا لك يا آى ، الحال خطيرة جدا ، هل تثق فى إخلاص الآخرين بنفس القوة ؟!

فتفكرت قليلا ثم قلت :

بعضهم على الأقل لا يرتقى إليهم شك .

فقالت بتوجس :

- يهمني أن أسمع رأيك في حور محب خاصة ؟

فقلت دون تردد:

_ قائد مخلص وزميل صبا الملك ..

فقلت بكآبة:

ـــ هو من يقلقني يا آي ..

ـــ ربما لأنه صاحب القوة ولكنه لايقل إخلاصا للملك عن مرى رع .

وحصل اللقاء بين تبى وبين الملك ولكنها فشلت مثلنا ، ورجعت إلى طيبة خائبة الرجاء ، ثم ساءت حالتها الصحية وماتت تاركة وراءها تاريخا ملكيا بالغ الروعة .

ومضت الأحوال من سيئ إلى أسوأ حتى نفضت جميع الأقاليم عنها الولاء للملك ، وبتنا محاصرين في سجن اسمه أخت آتون نحن وإلهنا

الواحد !. وشعر كل واحد بدنو الكارثة إلا إخناتون الذى جعل يقول بكل ثقة :

_ لن يخذلني إلْهي ا

وإذا بكاهن آمون الأكبر يقتحم المدينة معتمدا على قوة لاقبل لنا بها . وكنت أنا أول من تسلل إلى قصره الكاهن . ودهشت وأنا أتفرس في وجهه وهو متنكر في زى تاجر . وقلت له :

_ لماذا تتخفى وأنت تعلم أن الملك لا يؤذي أحدا ؟

فتجاهل قولي وقال لي بلهجة حازمة :

ـــ دبر لي لقاء مع رءوس الرجال ...

واجتمع بنا في حديقة قصر الملكة الراحلة تبي ، ولم يخف عنا أنه يتكلم من موقع القوة ، وأنه يطالبنا بأن نتعاون معه على حقن الدماء ، وتركنا بعد أن ألقى إنذاره الأخير كأنه حية تسعى تحت أرجلنا . وقد حرت في تفسير سلوك الرجل لأننى لم أكن أحسن به الظن . واستشففت وراءه حقيقة لم يبح بها وهي أنه لم يكن واثقا من ولاء كل جيوش الأقاليم ومشفقا من مغبة فوضي عسكرية ضارية تنتهى بهزيمة له أو بنصر فادح الثمن . غير أننى اقتنعت بأن الخطر الذي يتهدده لا يقل عن الخطر الذي يتهدده لا يقل عن الخطر الذي يتهددنا ، وأن مصر هي الخاسرة في الحالين . ولم يتقوض الاجتماع بذهابه . شعرنا جميعا بأننا مطالبون باتخاذ قرار .

ورغما عنى وجدتنى أسأله مقاطعا لأول مرة :

من شهد ذلك الاجتماع من رجال الملك ؟

فضيق عينيه الباهتتين ثم قال:

ــ لم أعد أتذكر ، مضت أعوام وأعوام ، ولكن كان بينهم

حور محب وناخت وربما توتو وزير الرسائل أيضا ، على أي حال كان حور محب أول المتكلمين فقال :

__ إنى صديقه وقائد حرسه!

وقلب عينيه البنيتين في وجوهنا وقال بهدوء وتصميم:

... لا مفر من حسم الموقف لإنقاذ البلاد.

ولم ينبس أحد باعتراض . وطلبنا مقابلة رسمية . وأدينا فروض التحية التقليدية أمام العرش . وكان إخناتون يبتسم أما نفرتيتي فتبدت جامدة عاطلة من تألقها المألوف . وابتدرنا إخناتون :

ــ ليس وراءكم خير!

فقال حور محب:

_ جئنا من أجل خير مصر يامولاي .

فقال بهدوء ويقين:

_ إنى أعمل لخير مصر ولخير العالم كله .

فقال حور محب:

ــ البلاد على شفا حرب مهلكة ، ولا بد من قرار حازم لتجنيبها و يلات الخراب .

فسأله الملك:

ـــ هل لديكم اقتراح ؟

فقال:

__ لا مفر من إعلان الحرية للأديان ، وإصدار أمر لجيش الحدود بالدفاع عن الإمبراطورية ..

· فهز الملك رأسه المتوج بتاج القطرين وقال :

ـــ هذا يعنى الارتداد إلى الكفر وما يحق لى أن أصدر قرارا إلا تنفيذا لإرادة إلـٰهي الخالق الواحد .

فقال حور محب بجرأة:

__ من حقك يامولاى أن تحتفظ بعقيدتك ولكن عليك في تلك الحال أن تتنازل عن العرش ..

فقال بإصرار وعيناه تتوهجان كضوء الشمس:

_ هيهات أن أرتكب خيانة في حق إللهي المعبود بالتخلي عن عرشه !

وحول إخناتون عينيه إلى فشعرت بأنني أغوص في أعماق الجحيم ولكنني قلت :

_ إنه السبيل الوحيد للدفاع عنك وعن عقيدتك .

فقال الملك بأسى:

ـــ اذهبوا بسلام .

ولكن حور محب قال :

_ بل نترك لك مهلة للتأمل .

وغادرت قاعة العرش مع من غادرها وأنا أعانى من وخز قلق لعله لم في فارقنى حتى اليوم . وفي أيام متقاربة تلاحقت أحمداث خطيرة . هجرت نفرتيتي القصر الفرعوني واعتزلت في قصرها شمالي أخت آتون . وقابلتها مستطلعا ولكنها قالت لي بإيجاز غامض :

ـــ لن أغادر قصرى حتى الموت .

وأبت أن تضيف كلمة إلى ذلك . أما إخناتون فقد أعلن جلوس أخيه سمنخ رع شريكا له على عرشه ، غير أن كهنة طيبة بايعوا توت

عنخ آتون الأخ الثاني ملكا معلنين بذلك عزلهم لسمنخرع وإخناتون نفسه ، وبدا أنه لاخيار فإما التسليم بالأمر الواقع وإما الحرب . وقابل حور محب الملك فوجده مصر اعلى موقفه ، وقال له :

فقال له حور محب:

ــ نستأذنك يامولاى فى هجر آخت آتون والرجوع إلى طيبة ، بذلك تعود الوحدة للبلاد ويختفى شبح الخراب ، وأتعهد لك بأنه لن يمسك الأذى حيا أو ميتا ، وما دفعنا إلى ذلك إلا الرغبة فى إنقاذ البلاد وإنقاذك .

فقال إخناتون وهو يشتعل بالإصرار والحماس:

_ افعلوا ما بدا لكم ، لن ألومكم على ضعف إيمانكم ، ولست في حاجة إلى حماية أحد فإللهي معي ، وهو لن يخذلني ..

ونفذنا قرارنا في وجوم وحزن ، وسرعان مااقتدى بنا أهل المدينة حتى خلت من الأحياء ، إلا إخناتون في قصره ، ونفرتيتي في قصرها ، ونفر من الحراس والعبيد . ومالبث أن غزا المرض الجسد الذي لم يعرف الراحة مذشب على قدميه ، فمات وحيدا ، وكان يغمغم وهو يحتضم :

ياخالق الجرثومة في المسرأة وصانع النطفسة في الرجسل ومعطى الحياة للوليد في بطن أمه لا يعرف الوحدة من يذكرك وإذا غاب عنك الوعسسى صارت الأرض في ظلمسسسة كأنها موات

وسكت آى ليسترد ذاته من تيار الذكريات ، ثم نظر نحوى بعطف وقال :

ــ هذه هى قصة إخناتون الذى يدعى اليوم إذا ذكر بالمارق وتصب عليه اللعنات . ولا أستطيع أن أهون من الخسائر التي حاقت بالبلاد بسببه فقد خسرت إمبر اطوريتها ومزقتها الخلافات ، ولكنى أعترف لك بأننى لا أستطيع أيضا أن أنزع من قلبي حبى له وإعجابي به ، فلندع الحكم النهائي عليه للميزان أمام عرش أوزوريس حاكم العالم الأبدى .

* * *

وغادرت قصر الحكيم آي وأنا أعتقد أن الحكم النهائي عليه هو أيضا لن يعرف إلا حين يوضع قلبه فوق كفة الميزان أمام عرش أوزوريس.

« حور محب »

متوسط القامة ، متين البنيان ، ذو مظهر يوحى بالقوة وصدق العزيمة ، سليل أسرة كهنوتية متوسطة بمنف غنية بمن عرف من رجالها من أطباء وكهنة وضباط ، وكان أبوه أول من ارتفع من الأسرة إلى مستوى السادة لشغله وظيفة « رئيس الجياد » في بلاط أمنحتب الثالث . وهو الرجل الوحيد من رجال إخناتون الذي احتفظ بوظيفته كقائد للحرس في العهد الجديد ، ووكل إليه بمهمة القضاء على الفساد في داخل البلاد وإعادة الأمن إلى ربوعها فأحرز في ذلك نجاحا مرموقا . وقد شهد له كاهن آمون الأكبر ، وصدق على ذلك الحكيم آى ، بأنه كان بطل اللحظة الحرجة في مأساة العهد البائد . استقبلني في قاعة استقباله المتصلة بحديقة القصر ، وأنشأ يحدثني عن « المارق » قائلا : كان رفيق صباى ، وصديقى ، قبل أن يصير مليكى ، ومذ عرفته وحتى الساعة التي ودعته فيها إلى الأبد لم يكن له ما يشغله في هذه الدنيا سوى الدين .

وراح يستجمع أفكاره مليا ثم استمر قائلا :

.... أوليته الاحترام الذى يستحقه مذ عرفته ، ذلك أنى ربيت على تقديس الواجب ، وعلى وضع الشيء في موضعه بصرف النظر عن عواطفى الشخصية ، وكان هو ولى العهد وكنت أنا أحد رعاياه ، فلزمنى احترامه ، أما باطنى فقد احتقره ، احتقرته لضعفه والأنوثة الضاربة في وجهه وجسده ، ولم أتصور أن أكون له صديقا حقيقيا ،

غير أن الواقع أننى صرت صديقه بكل معنى الكلمة . وإنى لأتساءل كيف كان ماكان ؟. ربما لأننى عجزت عن مقاومة عواطفه الرقيقة المهذبة ذات السحر النافذ . كان ذا مقدرة عجيبة على اصطياد القلوب وأسر النفوس ، ألم يهتف له الشعب وهو يدعوه إلى الكفر بآلهة الآباء والأجداد ؟. وكنا _ هو وأنا _ على طرفى نقيض ، فلم يمنع ذلك عواطفنا من أن تتجسد في صورة صداقة متينة ، صمدت للأعاصير حتى ارتطمت آخر الأمر بصخرة لا تقهر . إنى أسمعه وهو يقول لى باسما :

_ حور محب ، أيها الوحش المتعطش للدماء ، إني أحبك .

وعبثا حاولت أن أعثر على شيء مشترك بيننا . دعوته كثيرا إلى الصيد وهو رياضتي المفضلة فكان يقول لي :

... لا تدنس الحب الذي ينبض به قلب الوجود .

لم يكن يعجب بالزى العسكرى فكان يرمق سروالي القصير وقلنسوتي وسيفي ويتساءل متهكما :

ـــ أليس عجيبا أن يدرب أناس مهذبون على القتل ليحترفوه بعد ذلك ؟

حتى قلت له مرة:

_ ترى مارأى جدك العظيم تحتمس الثالث فيما تقول ؟

-- جدى العظيم 1، أقام عظمته على هرم من جثث المساكين ، انظر إلى صورته المنقوشة على جدار المعبد وهو يقدم القرابين من الأسرى إلى آمون ، فأى جد عظيم وأى إله دموى ..

وقلت لنفسي إنه يقبل كصديق رغم شذوذ آرائه ولكن كيف يجلس

بها على العرش ؟!. لم أستطع أبدا أن أهضمه كفرعون من فراعين مصر ، ولم أتحول عن رأيى هذا في أى وقت من الأوقات ، ولا أستثنى من ذلك أهنأ الأوقات وأحفلها بالسرور ، بل لعله تبدى لعينى في تلك الأيام السعيدة أوغل في البعد عن هيبة الفراعنة ومجدهم الخالد . وحدث أن انتدبت لتأديب بعض العصاة في طرف من أطراف الإمبراطورية قائدا لأول مرة لحملة عسكرية . وهناك أحرزت نصرا حاسما فرجعت بالغنائم والأسرى . ونلت الجزاء تكريما نبيلا من مولاى أمنحتب الثالث . وهنائى الأمير بسلامة العودة فدعوته لمشاهدة الأسرى . استعرضهم وهم وقوف شبه عرايا يرسفون في الأغلال . رنا إليهم طويلا فنظروا نحوه مستعطفين كأنما لمسوا الضعف في أعماق نظرته . وأظلت وجهه غمامة كآبة وقال لهم برقة :

_ اطمئنوا فلن يمسكم أذى !

وهاج خاطرى لأننى كنت على يقين من أنهم سيلقون ألوانا من التأديب حتى يتعودرا على النظام والعمل . ولما رجعنا معا سألنى باسما :

ــ أأنت فخور بما صنعت يا حور محب ؟

فقلت بصراحة :

_ إنى أستحق ذلك أيها الأمير .

فتمتم في غموض:

_ يالها من مشكلة!

ثم ضحك قائلا في دعابة:

ـــ ماأنت إلا قاطع طريق يا حور محب ا

(م ٤ ــ العائش في الحقيقة)

ذلك كان ولى العهد المرشح للجلوس على العرش على ذلك فقد شدنى إلى صداقته وحبه ، وأغرانى دائما بمتابعة أفكاره التى لم أتأثر بها قط ، كمن يتابع صوتا غريبا لا ينتمى للبشر . ومازلت حتى الساعة أتساءل فى حيرة كيف صادقته وكيف أحببته ؟! وبهذه المناسبة أذكر مناقشة دينية جرت بيننا أمام خلوته بحديقة القصر الملكى . سألنى : سالنى : لماذا تصلى ياحور محب فى معبد آمون ؟

فأخذت للسؤال ، خاصة وأنني لم أملك إجابة ترضيه أو ترضيني . ولما و جدني صامتا سألني :

_ هل تؤمن حقا بآمون وما يقال عنه ؟

فتفكرت قليلا ثم قلت:

_ لا كما يؤمن الناس به!

فقال بجدية:

_ إيمان أو لا إيمان ، ولا ثالث بينهما .

فقلت بصر احة:

_ لا أهتم بالدين إلا باعتباره من تقاليد مصر الراسخة . فقال بثقة مثيرة :

_ إنك تعبد ذاتك يا حور محب .

فقلت بتحد :

_ قل إني أعبد مصر.

ــ ألم يساورك إغراء لمعرفة سر الوجود ؟

فقلت بمرارة:

_ إنى أعرف كيف أمحق هذا الإغراء .

_ يا للخسارة ، وماذا فعلت من أجل روحك ؟ فقلت متبرما بالمطاردة :

ــــ إنى أقدس الواجب ، وقد شيدت لى مقبرة ا فقال متنهدا :

_ أتمنى يوما أن تذوق سرور القرب .

فتساءلت في دهشة:

_ القرب ؟

_ القرب من خالق الوجود الواحد .

فتساءلت في شيء من الاستهانة:

_ ولم يكون واحدا ؟

فقال بهدوء :

ـــ إنه أقوى وأجل من أن يوجد شريك له .

ذلك الشاب المهزول ، الذي يتجنب القصر ويهيم بالحديقة . المولع بالأزهار والغناء والطيور مثل فتاة مهذبة . لِم لم يخلق أنثى ؟. لقدهمت الطبيعة بأن تفعل ذلك ولكنها عدلت عنه في اللحظة الأخيرة لسوء حظ مص .

وسكت حور محب وقتا ثم واصل الحديث:

_ وتوكد مصيره بزواجه من نفرتيتي . ظهرت لأول مرة في القصر الفرعوني في الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على جلوس الملك على العرش فبهرت الأعين بجمالها وشخصيتها ، واشتركت في الرقص مع بنات السادة ، وغنت بصوت رخيم :

أخى ماأحلى الذهاب إلى البحيرة والاغالى منك على مرأى منك لترى جمالى فى ثوبى الكتانى الرقيق حينما يبتال ويلستصق بجسدى تعال وانظر إلى

ولاأشك أن آى وتى زوجته أحسنا تقديم كريمتهما ، ومهدا لها الطريق إلى العرش . ولا تنس أن آى كان معلم الأمير ومرشده فلاحت له ولا شك الفرص للتأثير فى شخصية ضعيفة متهالكة وإيقاعها فى الشرك . على أى حال فازت نفرتيتى فى الحفل بإعجاب الأمير وأمه الملكة تيى معا . وسرعان ما زفت نفرتيتى إلى الأمير . وأد كر أن كاهن آمون قال لى فى حفل الزفاف :

ــ لعل الزواج يصلح ماأفسده تهور الشباب .

فقلت له بيرود:

_ إنها كما ترى من أصل شعبى ، وما كانت تحلم بالعرش ، ولن تجازف أبدا بإغضاب زوجها الملك !

وقد ساءلت نفسى ترى أكانت نفرتيتى ترضى بالأمير زوجا لو لم يكن وليا للعهد ؟!. الحق أنه لا يمكن أن يكون فارس أحلام أى فتاة ولو كانت فلاحة ساذجة . وقد ازداد الأمير بعد الزواج تحديا للتقاليد . وعلمت متأخرا بعض الوقت بادعاءاته الغريبة عن تجلى إلهه له وسماع صوته ، ورأيت المستقبل يتسربل بليل بهيم . وبازدياد التوتر غضب الملك أمنحتب الثالث وأمر بإرساله لزيارة الإمبراطورية .

هنا حدثنى بإسهاب عن مناقشاته الدينية، واتصاله بالرعايا وتبشيره بالمساواة والحب والدين الجديد دون إضافة جديدة إلى ماحدثنى به الحكيم آى .

* * *

وقال معلقا على الأحداث :

ـــولأول مرة ، ورغم الصداقة والولاء ، تمنيت أن أقتله بسيفي قبل أن يجلب علينا الخراب . والحق أنى تمنيت قتله دون أن أضمر له أى شعور بالكراهية . ومات أمنحتب الثالث واستدعى الأمير للجلوس على عرش تحتمس الثالث . وتولى العرش ودعا الرجال واحدا في إثر واحد ليعرض عليهم دينه . ولما جاء دورى قال لى :

_ لا بد من إعلان الإيمان بالإله الواحد لمن شاء أن يتعاون معى يا حور محب .

وبصراحتي المعهودة قلت له:

_ مولای ، موقفی من الآلهة معروف لدیکم ، ولکنی رجل الواجب وخادم العرش ، وإنی أعلن إیمانی بالإله الواحد إخلاصا لعرشك و خدمة لوطنی ..

فقال باسما:

__حسبی ذلك الآن ، لا أحب أن يخلو قصری منك يا حور محب ، وسوف تتلقی رحمة الإيمان ذات يوم .

و بدأت حياة جديدة في خدمة ملك جديد وإلله جديد ، وبإخلاص كامل غريب لأنه استند إلى الإيمان بالواجب وحده دون غيره . ولكن لا مفر من الاعتراف بأن الملك تكشف عن قوى خفية لم أعرفها فيه من

قبل. , غم الضعف الجسدى والأنوثة الخلقية انطلقت منه عزيمة متحدية مثل ألسنة اللهب لا تدرى من أي مجهول استعارها ، ناضل بها أقوى الرجال وهم الكهنة ، وحطم بها التقاليد العريقة الراسخة والسحر والتعاويذ . وتكشفت نفرتيتي عن ملكة كأنما لم تخلق إلاكي تكون ملكة عظمي مثل تيي وحتشبسوت ، فكانت هي المدبرة لشئون الملك على حين تفرغ هو لرسالته . بيد أنها بدت لي ــ وللجميع ــ مؤمنة بالدين الجديد إيمانا فاق للأسف كل تصور . والحق لقد قيل عن هذه المرأة كل ما يمكن أن يقال ، وأنا أكره شخصيا ترديد ما يقال عن الأمور الشخصية ، ومع ذلك فإن إيمانها يبقى لغزا يطلب حلا . أحيانا لم أشك في صدقها ، وأحيانا أخرى ساورتني شكوك . هل تتظاهر بالإيمان محافظة على مركزها الرفيع ؟. هل تشجعه عليه لتستأثر وحدها بشئون الأرض والرعايا ؟، أكان لأَبيها في ذلك دور خفي لعبه بيد ابنته ؟. وقد حاول الكهنة أن يبصروها بالعواقب ولكنها خيبت رجاءهم فصبوا عليها مقتهم حتى هذه الساعة . إنهم آمنوا بضعف إخنانون ولم يتصوروا به قدرة على التحدي أو النضال أو الابتكار . من أجل ذلك اتهموا أمه تيي بأنها خالقة أفكاره كما اتهموا نفرتيتي بأنها سر عناده وصلابته . وهي صورة خاطئة . لك أن تدين الجميع ولكن لا شك أن جميع الخز عبلات قد خرجت من رأس إخناتون نفسه . و بالانتقال إلى العاصمة الجديدة أخت آتون أعلن الملك حربه على جميع الآلهة . وانغمس في التبشير لدينه في جميع الأقاليم . وهادنتنا أيام نصر وسعادة ورخاء حتى خيل إلى أن هذا الشاب المتهافت قد قيض له أن يقوض بنيان الدنيا وأنه يعيد بناءه من جديد على مثال من صنعه وتخطيطه . تابعت غزواته للأقاليـم

واستقبال الجموع له بانبهار. آنست في الجو قوة من نوع جديد تمارس بجدارة مذهلة. ولكنني لم أخل أبدا من شك في العالم الجديد الذي يتخلق فيما يشبه الاكتساح. أيصمد هذا العالم للزمن ؟. هل يمكن أن تتوازن الأمور على سنة الحب والسلام والسرور؟!. وأين تذهب حقائق الحياة و تجاربها ؟. وقالت لى نفرتيتي مرة وهي قارئة للأفكار:

__ إنه ملهم ، ولن يخذله إللهه الذي أغدق عليه حبه ، وسيكون النصر لنا . .

وأنفردت يوما بالوزير ناخت في مجلس صفو وشراب ، وكنت ومازلت مؤمنا بمقدرته السياسية ، فسألته :

ـــ أتؤمن حقا بالإله الواحد ، إله الحب والسلام ؟

فقال بهدوء:

ـــ نعم ، ولكني لست مع مصادرة الآلهة الأخرى .

فقلت بارتياح:

_ حل وسط ، أنم تشر عليه به ؟

ـــ بلى ، ولكنه يعتبره كفرا .

_ ونفرتيتي ؟

فقال بأسف !

__ إنها تتكلم بلغته ..

张 崇 恭

ومضى يحكى لى في إسهاب كيف انقلبت الأمور في الداخل والخارج دون إضافة جديدة لما قاله الكاهن الأكبر لآمون أو الحكيم آي.

ثم قال :

وربت على منكبي بعطف ثم واصل:

_ لا تشارك التعساء إصرارهم على حب التعاسة !

ولما ازدادت الحال سوءاً تمنيت مرة أخرى أن أقتله بسيفى وأنقذ البلاد من جنونه . تمنيت أن أقتله باسم الحب والولاء . وتبين لى أن ما حسبته قوة جبارة تنطلق من أعماق هيكله الضعيف ماهى إلا جنون أهوج يجب حصره وشكمه . وعند ذروة الأزمة زارتنا الملكة الوالدة تبى ، واستدعتنى إلى لقاء بقصرها جنوب أخت آتون . وقالت لى :

ــ سيكون لي حديث طويل مع الملك .

فقلت لها بكل إخلاص:

ـــ لعلك توفقين فيما فشلنا فيه .

فرمقتني بنظرة كنت خبيرا بعمقها وسألتني :

_ هل دفعتك الأحداث إلى مصارحته برأى جديد في الموقف ؟ فأجبتها من فورى لسابق علمي بتأويلاتها للتردد الذي قد يسبق الإجابة :

ــ اقترحت يا مولاتي تغيير السياسة في الداخل والخارج .

فقالت بارتياح:

_ هذا ما ينتظر من المخلصين أمثالك .

ـــ إنه مليكي وصديقي كما تعلمين يا مولاتي ..

فواجهتني بنظرة صريحة وسألتني :

ــ هل تعدني يا حور محب بالمحافظة على الولاء له في جميع الظروف والأحوال ؟

فقلت وعقلي يعمل بسرعة فائقة:

_ أعدك بالولاء له مهما تكن الظروف والأحوال .

فقالت بارتياح غير خاف:

__ إنهم يطالبون برأسه، وإنك رجل القوة التي تحافظ عليه، وربما سعوا إلى استقطابك عاجلا أو آجلا .

فكررت وعدى بالصدق والإخلاص . وقد حافظت على عهدى عندما اقتنعت بأن خير وسيلة للدفاع عنه هى التخلى عنه . وفشلت تيى في مسعاها رغم ما عرف عنها من سيطرة كاملة عليه . وغادرت أخت آتون لتموت في حسرة أبدية . وضيق الخناق علينا في مدينة الإله الجديد ، وتوكد لدى أن الإله الجديد عاجز عن الدفاع عن نفسه فضلا عن محبوبه المختار . وذقنا الحرمان وتهددنا الموت من الشمال والجنوب . ولم يضعف ذلك من مقاومته بل لعله زاده إصرارا وعنادا ، ولم تنطفئ نشوته الدينية فكان يقول لمحدثه :

_ لن يخذلني إلهي يا ضعيف الإيمان .

وكلما رأيت وجهه المتألق بالنشوة والثقة أيقنت أكثر وأكثر من جنونه . لم تكن معركة دينية كما تجرى في الظاهر ولكنها كانت فوضى جنونية تحتدم في رأس رجل ولد في هالة من الشذوذ . ثم كانت زيارة كاهن آمون لنا وتوجيه إنذاره الأخير إلينا ، وقد قبض على يدى بقوة وقال لى :

_ إنك رجل الواجب والقوة يا حور محب فأنقذ ضميرك بفعل ما يرجى منك .

والحق أنى أكبرت فى الرجل ارتفاعه عن التشفى والانتقام وسعيه إلى تجنيب البلاد ويلات المزيد من الخراب . وطلبنا المقابلة . كانت عسيرة وأليمة وحزينة . كنا ننفض عنا الولاء نحو الرجل الذى لم يكن لشىء سوى الحب . الذى صور له جنونه حلما عجيبا أراد لنا أن نشار كه فى سعادته الوهمية. واقترحت عليه إعلان حرية الأديان والدفاع الفورى عن الإمبراطورية . ولما رفض اقترحت عليه أن يتخلى عن العرش ويتفرغ لنشر دينه . وغادرناه ليعيد النظر فى الموقف كله . وقد أشرك سمنخ رع فى عرشه على حين هجرته نفرتيتي ولكنه لم يتراجع خطوة عن إصراره . وقررنا التخلى عنه والانضمام إلى الجانب الآخر لتعود عن إصراره . وقررنا التخلى عنه والانضمام إلى الجانب الآخر لتعود الوحدة للوطن ، بعد الاتفاق على ألا يتعرض له أحد _ ولا لزوجه _ بأذى . وأقسمت يمين الولاء للملك الجديد توت عنخ آمون فأسدل الظلام على أكبر مأساة تقطع لها قلب مصر ، فانظر إلى ما صنع الجنون بمحداً رض مجيدة عريقة 1

وشملنا صمت الختام فأخذت أنسق أوراقي تأهبا للذهاب . غير أنني سألته :

ـــ وکیف تفسر هجر نفرتیتی له ؟ فأجاب دون تردد : ـــ لقد أدركت ولا شك أن جنونه جاوز خط الأمان فهجرت قصره محافظة على حياتها !

- ولمَ لم تهجر المدينة معكم ؟

فقال باز دراء:

- كانت على يقين من أن الكهنة يعتبرونها الفاعل الأصلى في الجريمة الكبرى!

فسألته وأنا أحييه مودعا:

_ و کیف مات ؟

ـــ عجز ضعفه عن احتمال الهزيمة ، واهتز إيمانه ولا شك بتخلى إللهه عنه ، فمرض أياما قليلة ثم مات .

فسألته بعد شيء من التردد:

_ كيف تلقيت خبر موته يا سيدى القائد ؟

فاجابني متجهما:

_ لقد قلت كل شيء ! .

يعيش المثال بك في جزيرة نيلية على مبعدة ميلين جنوب طيبة . في بيت أنيق صغير يقع في وسط مزرعته الصغيرة ، وفي شبه عزلة . ورغم ما يشهد له به من تفوق في فنه إلا أنه لم يدع للمشاركة في بناء الدولة المجديدة لما عرف عنه من ولاء لسيده السابق ، بل ولما يتهم به أحيانا من الكفر بالآلهة القديمة . وهو اليوم يشارف الأربعين من عمره ، طويل القامة نحيلها مع قوة ونشاط ، ذو سمرة داكنة ونظرة ساخنة تغشاها كآبة . تبسم وهو يقرأ رسالة أبي ثم نظر إلى قائلا :

- انطفأت روح الجمال بذهابه وغاض السرور من الألوان والنغم! وقد عرفته وأنا صبى أتلقى أصول الصنعة في مدرسة أبي « من » المثال الأكبر للملك أمنحتب الثالث. فذات يوم زارنا صبى محمولا على محفة ، فهمس أبي في أذنى :

ــ ولى العهد!

رأيت صبيا يماثلني في العمر ، نحيلا ضعيفا ، ذا نظرة شديدة التأثير ، بسيطا بشوشا ، مغرما بلغة الأحجار المعجزة . جاء ليشاهد ويتعلم ، ويحاور في ألفة محببة سرعان ما تنسيك أنك تحادث ابنا من سلالة الآلهة . واظب على زيارتنا في أيام معينة فنشأت بينه وبيني صداقة ، باركها أبى فخورا وسعدت بها أنا غاية السعادة . وجعل أبى يقول لى عنه :

ــ إنه رجل ناضج ذو سن صغيرة يابك!

أجل كان كذلك . حتى كاهن آمون الأكبر اعترف له بنضجه المبكر وإن فسره على هواه بأنه قوة شريرة حلت فيه . كلايا سيدى . القوة الشريرة معششة في قلوب الكهنة . أما سيدى ومولاى فلم يعرف الشر قلبه وربما كان ذلك سر مأساته . ولما تقدم به العمر سنوات أخذ يناقش أبى وهو مكب على صنع تمثال لأمنحتب الثالث . قال له وهو يتابع العمل بين أبى ومعاونيه ;

ــ لكم تقاليد يامعلم تخنق الأنفاس ..

فقال أبي بفخار:

- بالتقاليد نقهر الزمن أيها الأمير .

فهتف مولای بنشوة:

ــ مع مولد كل شمس يولد جمال جديد ..

واقترب منی وهمس :

ــ يا بك ، لن يكون هذا تمثالا أمينا لأبي ، أين الحقيقة ؟!

الحقيقة التي عاش من أجلها ومات في سبيلها . منذ وقت مبكر انثالت على روحه إلهامات الغيب ، كأنما خرجت معه إلى الوجود ساعة وجد دفقة من أنوارها .

ويوما ما قال لي :

--- إنى أحبك يا بك ، أتقن درسك لتكون رجلى فى حقل الإبداع . الحق يا سيدى أننى مدين لمولاى وسيدى بكل شىء ، بالدين والفن معا . إنه الذى وجه مداركى لدين آتون ، وفتح قلبى بعد ذلك للإله الخالق الواحد الذى تجلى له صوته بالإيمان والحب :

تضيء الأرض بنــــورك فتنجلـــى عنهـــا الظلمـــات ياخالـــق الأرض والسمـــاء والإنسان والأنعــــــــام

وغمرني السلام فقلت له ونحن وحيدان بين المحجر والمدرسة : ـــ أشهد يا أميري ، أنني مؤمن باللهك ..

فقال بحبور :

— إنك ثانى المؤمنين بعد مرى رع ولكن ما أكثر الأعداء يا بك . وعلمت فيما بعد أن نفرتيتى آمنت معنا في وقت واحدوهي في قصر أيها آى . وكان يحدثني في أوقات متباعدة عما يلقى من عناء بسبب رسالته فكنت ألم بشذرات من الأحداث رغم عزلتي في المحجر خارج طيبة . وهداني إلى الفن الحقيقي أيضا . فإن كان أبي هو الذي علمني الأصول فمولاي هو الذي وهبني الروح . لقد وهب ذاته للحقيقة في الوجود والفن . من أجل ذلك أنكره الرجال الذين يعيشون للدنيا ولا يحسنون إلا لغتها المتبذلة، ويقبلون معها ويدبرون معها، ويهرعون إلى أي مائدة مثل الصقور والغربان ، مولاي نوع آخر ، اسمع إليه وهو يناجي إله قائلا :

ــ يا خالق الحيى والجماد ، خص بصرى بنورك ، وصدرى بسرورك ، وقلبي بنبضك الكوني العذب .

وأصغ إليه وهو يقول لى :

- احذر تعاليم الفن التي يريد أن يكبلنا بها الأموات ، اجعل حجرك مثه ي للحقيقة !

ويقول لي أيضا :

ساقد خلق الإله الأشياء فلا تعبث بها ، انقلها بأمانة ، أبرزها بتقوى ، لا تسلط عليها الخوف أو السهوة أو الأمانى الكاذبة ، اعكس كل ما بى من نقص فى الوجه والجسد ليتجلى جمالك فى الحقيقة ! ذلك هو مولاى وأستاذى الذى لا يعيد نغمة قديمة ، الذى يبهر بالجديد الحى ، محطم الأوثان ، مقتلع التقاليد البالية من جذورها ، السابح فى بحر المجهول ، المنغمس فى نشوة الحقيقة . ويوم اعتلى العرش أعلنت إيمانى مرة أخرى بين يديه وتقلدت وظيفة « المثال الأكبر للملك » . ويوم أمره الإله بالهجرة إلى المدينة الجديدة ، ذهبت على للملك » . ويوم أمره الإله بالهجرة إلى المدينة الجديدة ، ذهبت على رأس تماني ألفا من العمال وأهل الصنعة لنشيد أجمل مدينة عرفتها الأرض ، مدينة النور والإيمان ، أخت آتون . ذات الشوارع العريضة والقصور السامقة والحدائق الغناء والبحيرات المترعة ، آية آيات الفن والجمال التى انقض الحقد عليها فوقعت فريسة الكهنة والزمن .

وسكت مرغما ليجتر حزنه المقيم على رائعة حياته التي تنهاوى ساعة بعد أخرى ، وتتفتت لتضيع في زحمة تراب الأرص . واحترمت سكوته حتى خرج منه قائلا :

ــوكان لمولاى إنجازه في الفن أيضا فأبدع شعرا ورسما ، وجرب أصابعه الطويلة الرشيقة في مناجاة الحجر ، وإليك سرا لا يعرفه إلا الأقلون ، فقد نحت لنفرتيتي تمثالا نصفيا آية في الحقيقة والجمال ، لعله يوجد الآن في القصر المهجور أو في قصر نفرتيتي ، إن لم تكن انتقمت منه يد التخريب ، وعندما هجريه الملكة بغتة مخلفة في قلبه طعنة لا تندمل طمس عين التمثال اليسرى ، معربا بذلك عن خيبة أمله مع

الإبقاء على بقية التمثال رمزا لحب خالد ، وإيمان راسخ لم يتزعزع إلا في لحظة بأس أخيرة . لقد كانا معا الرمز الحي للإله الذي هو أب وأم معا ، وكان اتحادهما عن حب جليل ثبت أمام عواصف الزمن والأحداث ، فكيف دهمتنا بهحر الرجل في اللحظة الأخيرة ؟!. لم لم تبق إلى جانبه حتى النهاية ؟. لقد اتهمها أعداؤها بأنها هربت من السفينة الغارقة لتجد مكانا مناسبا في الدولة الجديدة ، ولكنها لم تخطب مودة أحد ، ولزمت قصرها بمحض مشيئتها قبل أن يتحول إلى سجن . كلا ، لا تنتمي مولاتي إلى الانتهازيين ، ولكني أعتقد أن إيمانها اهتز لموقف الإلَّه اللامبالي من الأحداث ، فهجرت العرش والعقيدة في ساعة بأس سوداء . أما مولاي فلم يتزحزح عن إصراره قيد حبة رمل . كيف لاوهو الذي تجلى الإله لروحه وأسمعه صوته ودعماه بابسه الحبيب ؟!. لم يعدو جدانه يتسع لسماع صوت آخر ، ولم يعد بكترث لرأى أو نصيحة كما ينبغي لمنغمس في الحقيقة . وهو لم ينهزم ولكننا نحن الذين انهزمنا ، فحتى أنا خامرتني شكوك ، خاصة بعد مطالبته بالتنازل عن العرش ، وأكثر عندما قرر الجميع التخلي عنه ، وجدته واقفا في خلوته يرقب ما يحدث بعينين طافحتين بالهدوء والصمت . ولما رآني قال:

_ سوف تذهب معهم يا بك .

فقلت بغضب:

ـــ لم يجرؤ أحد على مخاطبتي في ذلك يامولاي .

فقال باسما:

_ ولكنك ستذهب يابك .

فقلت بحماس:

ــ سأبقى إلى جانب مولاي إلى الأبد .

فقال برقة :

ستذهب مختارا أو مكرها ..

ولذت بالصمت فخامرني الشك من جديد فسألته:

ــ مولاي ، أيمكن أن ينتصر الشر ؟

فرأيته يغيب ثم يرجع ليقول لي :

- الخير لاينهزم ، والشر لاينتصر ، ولكننا لانشهد من الزمان إلا اللحظة العابرة ، والعجز والموت يحولان بيننا وبين رؤية الحقيقة .

وراح يترنم بصوت عذب :

وكما أنه لم يتخل عن إيمانه لحظة فلم يفرط أبدا في ناموسه الأسمى وهو الحب . فحتى في تلك الساعة التي رأى فيها الهرم الذى شيده يتهاوى حجرا في إثر حجر ، ورجاله ينضمون إلى أعدائه ، وزوجته المحبوبة تهجره دون كلمة وداع ، حتى في تلك الساعة المنحوسة لم يعرف قلبه الكراهية أو الحقد ، ذلك الرجل الذى ترفع حتى عن العقاب المشروع ، الذى هام بالإنسان والحيوان والجماد . انظر ياسيدى ، لقد تولى الملك في عصر الرخاء ، دانت له إمبراطورية مترامية وشعب محب مطيع ، ولو شاء أن ينعم بالسعادة والجلال والنساء والراحة لما محب مطيع ، ولو شاء أن ينعم بالسعادة والجلال والنساء والراحة لما

عزت عليه ، ولكنه أعرض عن ذلك كله ، واهبا ذاته للحقيقة ، متحديا قوى الشر والأنانية والطمع ، فضحى بكل شيء وهو يبتسم . وقد سألته يوما بعد أن ذرت قرون الشر والهمجية :

_ مولاى ، لم لا تلجأ إلى القوة دفاعا عن الحب والسلام ؟ فقال لي باسما :

_ لا يتردد المجرمون عن انتحال الأعذار لإشباع الرغبة الآثمة في البطش و سفك الدماء ، ولست منهم يا بك .

ولن أنسى عطفه على شخصى حينما آنس منى ميلا إلى « موت نجمت » أخت زوجته فسعى إلى تزويجى منها ، وكيف واسانى عندما أبت الزواج منى قائلا:

_ إنها مثل الحدأة تنتظر فرصتها!

واستفسرت عما يعنيه قوله ولكنه لم يزد . وقد صممت على البقاء بجانبه رغم فزع المدينة كلها للهجرة ، ووجدت رفيقا مصمما في كاهن الإله الواحد مرى رع ، ولكن الحكيم آى قابلني وقال لى : - إننا نهاجر لصد هجوم لاقبل لنا به دفاعا عن حياته ، ولو جاز لإنسان أن يبقى إلى جانبه لكنت ذلك الإنسان ، فإنى حموه ومعلمه !

فقلت:

_ أيها الحكيم ، إن بقائي لن يغير من الأمر شيئا .

فقال:

ــ ينص الاتفاق بيننا وبين الكهنة على ألا يمس الملك بأذى تحت شرط ألا يبقى أحد من أتباعه في المدينة سوى نفر من الخدم . هكذا اضطررت إلى الانضمام إلى القافلة وقلبى يتمزق ، ومازال يتمزق حتى الساعة . ومازال الشك ينخر في إيماني رغم قول مولاى المحكيم ، فأحيانا أصلى للإله وأحيانا أضرب عن الصلاة . ولما بلغنى نبأ وفاته تجددت أحزاني وبكيت حتى صفيت ماء عينى . وقد حدثنى قلبى بأنه لم يمت ولكنهم قتلوه بالسحر أو بوسيلة غادرة . وهاأنا أعيش بلا هدف أو سرور في انتظار الموت مثل مدينتي الرائعة الواقعة تحت رحمة الكهنة والزمن .

« تادو خيبا »

هى فى الأصل ابنة توشراتا ملك ميتانى أصدق صديق للعرش المصرى . تزوج منها أمنحتب الثالث فى أيامه الأخيرة ، وهو فى الستين وهى فى الخامسة عشرة ، ثم ورثها إخناتون ضمن حريم أبيه عنا اعتلائه العرش . وهى تعيش اليوم فى قصر بشمال طيبة مع ثلاثمائة من العبيد . وقد استقبلتنى بناء على توصية من حور محب . فى الحلقة الرابعة ذات جمال مثير وكبرياء وعظمة . ولقيتها فى حجرة فاخرة وهى تجلس على كرسى من الأبنوس المطعم بالذهب . شجعتنى بابتسامة وراحت تروى قصتها قائلة :

_ عاشرت الملك أمنحتب الثالث فترة قصيرة ، في جو مشحون بالغيرة والحقد . وعجبت للملكة العظمى تيى ، كيف تبوأت مركزها الرفيع ، على حين يوجد عشرات مثلها ممن يقمن بالخدمة في حريم أبي الملك العظيم توشراتا . وعجبت أكثر لمنظر ولى العهد الذي كنت أراه في الحديقة ، أي مخلوق هزيل قبيح يثبر الاحتقار أكثر مما يثبر العطف . وساءت صحة الملك الأب فاتهمني الحاقدون بأنني المسئولة عن ذلك ، والحق أني قرأت النهاية القريبة في صفحة وجهه المتغضن منذ الليلة الأولى . ورحت أفكر هل يرثني قريبا ذاك الصبي الحقير ؟! . وقلت لنفسي إن الحياة مع أبيه العجوز أفضل ، فهو عظيم ومرح وذو حيوية تناقض سنه وصحته . وكثيرا ماكان الحديث يدور حول ولى العهد في الحريم ، فنتندر بولعه بالفنون النسائية كالرسم والغناء ، وعدم العهد في الحريم ، فنتندر بولعه بالفنون النسائية كالرسم والغناء ، وعدم

لياقته الواضحة للعرش ، وزهده المريب في النساء . ووافتنا أخباره عن هوسه الديني وما يحدثه ذلك من متاعب لوالديه وما أثاره بين الكهنة من قلق ومخاوف . وكانت الأخبار تطوف بنا دون أن تنغرز في وجداننا ، فهموم النساء اليومية تغطى على شئون الدولة ، إلا موت الملك الذي هز الأعماق وفرض علينا طقوسا لاطاقة لنا بها . واعتلى المخلوق الحقير العرش هو ونفرتيتي التي تزوجها في حياة أبيه ، وآل إليه حريم أبيه . وأسبغ علينا رعايته كأننا حيوانات مستأنسة ولكنه لم يقترب منا حتى شاع بين النساء الآتيات من شتى الأمم الانحلال والشذوذ . وتساءلت امرأة :

__ لماذا لايهتم بنا ويكف عن معاركه الدينية الوبيلة ؟ فاجابتها أخرى :

ــ لو كان يستطيع ما شغل نفسه بذاك الهراء ..

ومع ذلك فقد دبت الغيرة في قلب نفرتيتي ، فقررت أن تزور الحريم للتحية والتعارف . وحمنت كل امرأة الباعث الحقيقي وراء الزيارة وهو أن تراني أنا عن قرب ، وذلك لما ذاع في القصر عن جمالي وشبايي . كنت الوحيدة التي تماثلها في العمر ، وتنافسها في الجمال ، وتتفوق عليها في الأصل إذ أنني كريمة ملك على حين أنها ابنة رجل من الشعب يدعي آي ، كان أول من أعلن إيمانه بالدين الجديد أمام الملك ، وأول من بادر إلى الانضمام إلى أعدائه عندما آذنت شمسه بالغروب . جاءتنا الملكة الجديدة بين صفين من الجواري ، وحيتنا امرأة امرأة تبعا الملكة الحريم ، وعندما جاء دوري — وكان الأخير — ثقبتني بنظرة مستطلعة فمثلت أمامها في أدب وتحد معا ، حتى تجلي الركود

فى ماء وجهها . من أجل ذلك حنقت على الملكة الوالدة تيى عندما نبهت ابنها الملك الهزيل إلى « واجبه » نحو حريمه ، وخاصة تادو خيبا ابنة الملك الصديق توشراتا .

لم تغفر لها تدخلها ، واشتعلت غضبا حينما أذعن الملك لإرادة أمه المحبوبة فقرر زيارتى . وكما تقضى التقاليد انتظرته فى حجرتى فوق سريرى المطعم بالندهب ، عارية تماما ، غير مخفية حسنا من محاسنى . وأقبل شبه عار إلا من وزرة قصيرة تطوق وسطه ، فجلس على طرف السرير باسما فى رقة مجللا بهدوء غير طبيعى . وهمس متسائلا :

_ أيسعدك أن تنجبي لي وليدا ؟

فقلت وأنا أغالب تقززى :

ــ إنه الواجب يامولاي !

فحارت في عينيه نظرة بائسة وهمس:

ــ إنى أبحث عن الحب فهو واجبى الأول والأخير .

فسألته بجرأة :

ـــ وهل ترغب فيّ عن حب يامولاى ؟

فربت ظهر يدى بعطف وقال:

_ لاعليك!

ولثم جبيني ثم غادر الغرفة كما جاء . ولم أبح بسر الليلة لأحد فظن النساء أن نفرتيتي قد خسرت نصف قلب الملك على الأقل . وكرت الأيام فلفحتنا نيران الأفئدة المضطرمة في الخارج حتى صدر القرار ببناء مدينة جديدة . وبعد سنوات انتقلنا إلى أخت آتون ، وسعد جميع من

حولنا ، ونبذنا في جناح لممارسة حياة غير محتملة مهينة ، دافعة للشذوذ ، ولما عرف أن الملك الأبله يعالج الخطايا بالحب لا العقاب ، انتشر الفسق بين الجنود والنساء ، وأهدرت جميع القيم .وراح الملك ينشر دينه الجديد في الأقاليم ، واستبقت النساء إلى الصلاة للإله الواحد بغير إيمان حقيقي ، حتى خيل إلى أنه دين بلا مؤمنين ، وأنه كون أمة من المنافقين والطموحين إلى المناصب والجاه والمال . ولم أتصور أن يكون لهذا الكون الكبير إله واحد ١. إن كل مدينة في حاجة إلى إله يعني بشئونها ، وكل نشاط إنساني في حاجة إلى إله متمرس فيه . وكيف تقوم المعاملة بين الناس على الحب ؟ إنه هذيان طفل لم تحسن تربيته وأفسده ولع أمه به . وكان يلقى على الجموع شعره ثم تترنم زوجته بإنشادها ، فحل محل العرش المعبود فرقة جوالة من الشعراء والمطربين ، وتلاشت هيبة الفراعنة . وكان لابد أن يقع ماوقع ، فجاءت الأحزان مثل ليل طويل لا يؤذن بفجر ، وتتابعت المصائب في داخل البلاد كما في الإمبراطورية ، وصمد أبي الشجاع المخلص وحده وهو يبعت الرسل في طلب النجدة حتى سقط مدرجا بدمه في الميدان دفاعا عن ملك أبله . وأحسن أناس الظن به فحسبوه شاعرا نبيلا أخطأ القدر بإجلاسه فوق العرش . أما الحقيقة فهي أنه كان مخلوقا غريبا ، لا هو ذكر ولا هو أنثى ، يؤرقه الشعور بالنقص والهوان ، فجر الناس إلى الهوان ، وأعلن شعار الحب ولكنه أشعل في القلوب البغضاء والحقد والفساد ، فمزق وطنه وضيع إمبراطوريته . وجارته في جنونه المرأة الداهية نفرتيتي لتستأثر بالسلطة ، ولتشبع غريزتها الفاجرة بين أحضان الرجال . وقد أقنعت الجميع بأنها وزوجها يشكلان أجمل

صورة للحب والوفاء ، كانا يتبادلان القبل أمام الجموع في شوارع أخت آتون وفي لقاءات الأقاليم . والحق الذي يؤمن به نساء القصر كافة أنه لم تقم بينهما علاقة زوجية على الإطلاق ، وما كان بوسعه أن يقيمها ، ومارست حبها متعدد النزوات مع المثال بك والقائد حور محب والقائد ماى وغيرهم ، ومنهم أنجبت بناتها الست . بل قد تهامس بعض الجوارى بأنه لم يمارس علاقة جنسية إلا مع أمه الملكة تيى !..

ولاذت بالصمت وهي تلاحظ ما ارتسم في وجهي من آي الذهول، ثم واصلت:

وعرف بينا ذلك كحقيقة لاشك فيها ، وعرف أيضا أنه أنجب منها بنتا ، إنه لم يستطع الجنس مع غيرها ، وشهدت أكثر من جارية بأنها رأت الفعل رؤية العين ، ولم يغب ذلك عن نفرتيتى ، وبسببه تبادلت المرأتان كراهية مريرة على مدى العمر . المشكلة أن كثيرين لا يتصورون أن الرجل الذي زلزل الدنيا يمكن أن يتمخض عن كائن هزيل تافه لا وزن له . لكنها الحقيقة التي يجب أن تعرف وأن تسجل . ولولا أنه كان الوريث لأعظم أسرة في التاريخ لمضى فردا حقيرا في أزقة طيبة يتدفق ريق العته من فيه وتعبث به الصبيان ، ولا غرابة أن يستطيع معتوه — إذا جلس على العرش — أن يخرب إمبراطورية !. ولولا أن نفرتيتي راقت في عينيه لما كانت إلا عاهرة من عاهرات طيبة المحترفات .

وقبيل النهاية بقليل زارت الملكة الأم أخت آتون لإنقاذ السفينة الموشكة على الغرق ، ولكن النقاش احتد بينها وبين نفرتيتي ، ولم تتورع الملكة الشابة عن اتهام العجوز بأنها متواطئة مع أعداء العرش ، ولكن إخناتون حزن لذلك الاتهام ودافع عن أمه وعشيقته دفاعا حارا ، فغضبت نفرتيتي وأصرتها له في أعماقها ، وانتقمت في اللحظة الحرجة فهجرته فجأة قبل أن يقرر رجاله التخلي عنه ، وحاولت استرضاء الكهنة لتجد لها موضعا في الدولة الجديدة ، وربما طمحت أن تكون زوجة لتوت عنخ آمون ، ولكنهم وطئوا مسعاها بالنعال ، ولولا نفوذ عشيقها القديم حور محب لمزقوها إربا .

صمتت تادوخيبا وهي تبتسم بازدراء ثم ختمت حديثها قائلة : __ هذه هي قصة المعتوه وديانته الخرقاء !

ــ لم أكفر بإلهى آمون قط ، ولم أنضم إلى قافلة المنافقيس والانتهازيين ، ولكننى خدمت المارق بالاتفاق مع كاهن آمون الأكبر لأكون عينه اليقظة في القصر ، ويده الضاربة عند الضرورة .

هكذا بادرنى توتو وزير الرسائل فى عهد إخناتون دافعا عن نفسه تهمة النفاق التى تحلق فوق رجال إخناتون . وقد قابلته فى مقصورته بالمعبد حيث يشغل وظيفة الكاهن المرتل فى عهد توت عنخ آمون كما شغلها فى عهد أمنحتب الثالث . وهو رجل دين ريان الوجه جاحظ العينين عنيف الأعصاب . ودون تردد راح يعطينى تصوره عن المأساة . قال :

- امتازت هذه الأسرة العريقة بملوكها العظام ، فلم يتسلل إليها العفور إلا حين اختار أمنحتب الثالث شريكته في العرش من أسرة شعبية فاستعارت له ذلك الوريث الأرعن المخبول . وقد اتبع الملوك العظام معنا ـ نحن كهنة آمون ـ سياسة جديدة . عرفوا لآمون قدره وفضله وآمنوا به كبيرا لجميع الآلهة، وفي الوقت نفسه أولوا كهنة الآلهة الأخرى رعاياتهم ، ليضمنوا إخلاص الجميع ، وليقيموا بيننا وبين بقية الكهنة توازنا يضاعف من قوة العرش واستقلاله . ولم تصادف تلك السياسة هوى في نفوسنا ولكنها لم تبلغ بنا حد الاستياء أو الاعتراض ولم تنل من سمو مركزنا . ولما ولى العرش المارق و جد الطريق أمامه واضحا ، وكان من الممكن أن يسير فيه بسلام ملتزما بمنهج آبائه وأجداده ،

ولكن الخنفساء توهمت أنها أسد فكانت الكارثة . لم يكن كأحد من سابقيه في القوة أو الحكمة . وكان واعيا بضعفه وقبحه وأنوثنه ، ولكنه أوتى من المكر والخبث ما لا يتاح إلا لمن أذله الضعف وأحرقه الحقد ، فقرر أن يتخلص من جميع الكهنة ليخلو له وجه الملك وحده ثم ينصب نفسه إلها يستأثر بالعبادة دون شريك إلا إلها وهميا يتخذه قناعا لطموحه . ومضت تبلغنا أنباء عن معجزات الصبي الذي تفوق قواه سنه الصغير ، حتى عرفنا حكاية الإله الجديد الذي تجلى له و دعاه إلى الكفر بجميع الآلهة . وقلت يومها للكاهن الأكبر :

- _ إنها مؤامرة ويجب أن تقتل في مهدها .
 - وبدا أنه لا يسلم بأنها مؤامرة فقلت :
- _ إنى أتهم الملكة تبي والحكيم آي ، أما الغلام فلا مسئولية عليه . فقال الكاهن الأكبر:
- ـــ لا أعفى الملكة من جانب من المسئولية ولكنها مسئولية الخطأ في التقدير، أما آي فقد توكد لي لا أنه لا يقل عنا انزعاجا..
 - ولم يسعني إلا تصديقه فهو معصوم من الخطأ فقلت :
- _ إذن فنحن حيال كائن قد حلت فيه روح ست إلَّه الشر فيجب اغتياله فورا .

فقال الكاهن:

... الأمر لم يفلت بعد من يدى الملك والملكة ..

وآمنت بأننا سندفع ثمن ترددنا غاليا . وجعلت أدعو إلهي مرددا :

یا آمـــون أنت سیـــد الصامتیـــن الــذی یأتــی علــی صوت الفقیـــر عندمــا نادیـــتك فی محنتـــی جئت لتخلصنــــی

یا آمون یا سید طیبسة إنك أنت الذی تخطص من فی العالم السفلی اذا ناداك إنسان

فإنك أنت الـــذى تحضر من بعيــــد .

* * *

ومضى يسرد لى الحوادث التاريخية كما سمعتها من قبل ، رحلة الأمير في الإمبراطورية ، عودته ، اعتلاؤه العرش .

非特殊

وهنا قال معلقا :

- أعلن الرجال إيمانهم بدينه بين يديه ليتبوءوا مراكزهم في الدولة المجديدة . لقد سقط الجميع بلا كرامة ، فأتاحوا للمكر الخبيث أن ينفث سمه ويهلك الأرض ، ولاعذر لهم عن خيانتهم ، فهم مسئولون جميعا عما حل بنا من خراب . قلت للكاهن الأكبر :

لا جريمة بلا عقاب ، يجب اجتياح أخت آتون وقتل المارق والمارقة وآى وحور محب وناخت وبك ..

فقال:

- الوطن لا يحتمل مزيدا من الخراب .

فقلت بإصرار:

- لا ىد من دم لنحظى برضا آمون .

فقال:

ـــ إنى أدرى بما يرضى إلْهي .

فصمت وباطنى يغلى بالحنق ، فإنى أومن بأن الجريمة التي تفلت من العقاب تكرس الإثم بين الناس وتزعزع الثقة في العدالة الإلهية وتمهد لارتكاب المزيد من الجرائم . وشد ما يسوءني أن أرى أحدهم وهو ينعم بعزلة آمنة أو يعمل بين الشرفاء كأنه أحدهم ، كيف نوفر الأمان لمن شارك في إلحاق الخراب بنا ؟!

* * *

وواصل سرده للأحداث ، بناء أخت آتون ، الانتقال إلى المدينة الجديدة ، الانغماس في نشر الدعوة .

恭 恭 恭

قال:

- بت قريبا منه ، أعمل في رحابه ، وأتلقى كالأخرين هذيانه ، فعرفته على حقيقته أكثر من ذى قبل . كان يمكن أن يكون شاعرا أو مطربا ، ولكنه جلس على عرش الفراعنة ، فكانت الكارثة . قرر منذ البدء أن يتجاوز ضعفه المهين بمكر ودهاء وأن يستأثر بالسيادة . أراد أن يقول لتحتمس الشالث « رغم قوتك ومهارتك العسكرية فإننى الأقوى » . لم يكن ملهما كما اعتقد البعض ولا مجنونا كما ظن البعض الآخر ، ولكنه حظى بأكبر قدر من مكر الضعفاء الخبثاء فأجاد تمثيل دوره . تخيل أنه يستطيع أن يخلق الدنيا على هواه ، فعاش في دنيا من خلقه وصنعه لا رابطة تربطها بالواقع ، دنيا خلق لها قوانينها وتقاليدها

وأناسها ونصب نفسه إلها عليها معتمدا على سحر العرش وسيطرته على النفوس . من أجل ذلك تلاشى سحره لدى أول صدام حقيقى مع الواقع واجتاحه الفساد والتمرد والعدو وفر عنه الجبناء . وكثر الحديث عن ساعات وحيه وما تثمر من خوارق الأفعال والأقوال . وقد شهدت بعضها وأنا أعرض عليه الرسائل في خلوته . كانت تتلبسه حال من الانفعال المفتعل . فيخرج من حافة الوعى غائصا في المجهول ، ويتبادل كلمات غامضة مع أطراف غير مرئية ، ثم يعود رويدا إلى وعيه فيحدثنا عن إله الذي لن يخذله أبدا . وكنت أختلس نظرات من وجوه الدهاة من أمثال آى وحور محب وناخت وأتساءل هل حقا يصدقون المهزلة ؟ . . هل حقا جاز عليهم خبثه الأنثوى ؟ ا . . كلا ، لقد تظاهروا المهزلة ؟ . . هل حقا جاز عليهم خبثه الأنثوى ؟ ا . . كلا ، لقد تظاهروا المهزلة بين الشمال والجنوب .

非 柒 柴

وحدثنى عن انقلاب الأحداث ، فساد الموظفين ، عذاب الناس ، تمرد الإمبراطورية ، تحرش الحيثيين بالحدود ، مصرع توشراتا .

非非非

قال:

- أغرقنى فيضان من الخوف على البلاد ففكرت جادا في اغتياله لأنقذ الدنيا والدين من شره . وعثرت بلا كبير عناء على من تطوع لقتله في خلوته قبل الشروق ، ويسرت له مخبأ في الحديقة ، وكاد الرجل ينجح في مهمته لولا أن أدركه في اللحظة الاخيرة محو رئيس الشرطة فعاجله بضربة قاتلة واستحق بذلك لعنة الآلهة إلى الأبد . واستعنت

كثيرا بالسحر ولكنه لم يصب الهدف من سوء حظ البلاد ، ولعل الخبيت كان يلجأ إلى السحر المضاد .

* * *

وروى ماتلا ذلك من انتشار التمرد فى الأقاليم ، زيارة الملكة تيى لأخت آتون ، اللقاء التاريخي بين كاهن آمون ورجال إخناتون .

张 张 张

قال :

ولما يئس الخبيث الماكر من رجاله وعلم بتفكير الكهنة في المحتيار توت عنخ آمون للعرش أشرك سمنخ رع معه في عرشه ، ولكني نجمحت في اغتيال الشاب بوسائلي الخاصة ، وإذا بالبناء يتصدع باختفاء نفر تيتي نفسها فمات الشر ولكن بعد أن نفث سمه في جميع الأوصال . وقد كان من سوء حظنا جميعا أن ساقه قدره إلى اختيار نفرتيتي زوجة له . حقا إنها امرأة قوية الشخصية راجحة العقل فائقة الجمال ، ولكنها مثله مريضة بالطموح ، فآمنت في الظاهر بدينه ، وشاركته في الواقع مكره و خبثه . وعلى اليقين لم تكن تحبه وما كان في وسعها ذلك ولكنها هامت بالقوة والسيادة المطلقة . ولعلها دليل آخر على الدور الخفي الذي قام به الداهية آي الذي كان يتلقى في المناسبات هدايا الخفي الذي قام به الداهية آي الذي كان يتلقى في المناسبات هدايا القدور إلى قصره . ولكن كيف تعامت المرأة الذكية عن عواقب سياسة زوجها على البلاد والإمبراطورية ؟. وهل آمنت حقا برسالة الحب زاسلام ؟!. الحق أني لا أتصور ذلك ولا أسيغه ، ولكن لعلها غالت

فى تقدير سحر العرش الفرعونى وتوهمت أنه السحر الذى يغنى عن العقاب والسيف وجيش الدفاع . ولعلها أدركت الخطأ فى وقت مبكر ولكنها خافت أن تعلن وساوسها فتفقد ثقة زوجها فاستسلمت للمقادر. ولما تخلت الحاشية عن الملك تخلت عنه متعلقة بأمل أخير ألا يغدر بها عشاقها . وأعتقد أن حور محب حاول إقناع الكاهن الأكبر بقبولها فى طيبة ولكنه رفض ذلك وأصر على الرفض . وقد مات المارق وما زالت هى تتنفس فى سجنها متجرعة الأحزان والحسرات .

لو أن الذي خلف أمنحتب الثالث على عرشه عدو من الحيثيين لما

هى زوجة الحكيم آى ، فى السبعين من عمرها ، صغيرة الجسم ، ممتازة فى صحتها بالقياس إلى عمرها ، حلوة المحضر . وقد تزوج منها آى عقب موت زوجته الأولى أم نفرتيتى فتلقتها تى وهى بنت عام أو عامين ، ثم أنجبت له موت نجمت . ولما رفع الحظ نفرتيتى إلى العرش اختارت تى ضمن حاشيتها ووهبتها لقب « مربية الملكة » . ولولا أنها كانت تحبها ما فعلت ذلك ، وهو ما يدل على أن تى أحاطت نفرتيتى برعايتها وحبها وأنها لم تكن « امرأة أب » بالمعنى المألوف .

وقد سردتُ لها المعلومات التي حصلتُها عن الأحداث التاريخية ، ثم قلت :

ـــ لا داعى للتكرار إن لم يكن لديك إضافة أو تعديل حفظا على وقتك وراحتك .

فقالت تى :

ــ لم أخالط الملك رغم قربى من زوجته ، ولعله لم يخاطبنى الا مرات معدودة ، ولكن عذوبته لا تبرح القلب أبدا . وقد عرفنا عنه الكثير من بعيد عن لسان زوجى آى الذى اختير لتعليمه . وأذهلنا ما سمعنا عن موقفه من آمون وميله مع آتون ، ثم أذهلنا أضعافا ما قيل عن اكتشافه للإله الجديد . الحق أنه أذهلنى أنا وابنتى موت نجمت أما حبيبتى نفرتيتى فكان لها موقف آخر . ولكن على قبل ذلك أن أعرفك

بها ، إنها بنت ذكية ، وذات روح متوثبة تعشق الجمال وتهيم بالأسر ار الدينية ، ونضجها يفوق سنها بكثير ، حتى قلت يوما لزوجى آى : __ يخيل إلى أن ابنتك ستكون كاهنة !

وكان ينشب بينها وبين موت نجمت ما ينشب بين الأحوات الصغيرات من نزاع وخصومات عابرة ولكن الحق كان دائما معها ، ولا أذكر أنها تورطت في خطأ مرة ، وكانت تصالح أختها كما يصالح الكبير الصغير . وكانت تتفوق في تعليمها لدرجة خشيت معها على ابنتي من ردة فعل يتعذر إصلاحها . وجعلت تتلقى كلمات ولى العهد بإعجاب فتميل معه إلى آتون ، ثم تباغتنا بإعلان إيمانها بالإله الواحد . وقالت لها موت نجمت :

_ إنه كافر .

فقالت بيقين:

_ لقد سمع صوت الإله.

فصاحت بها:

ـــ وأنت أيضا كافرة !

کانت ذات صوت عذب ، وشد ما کان یسرنا أن نسمعها وهی تغنی :

> ماذا عساى أقـــول لأمـــي فكــل يوم أرجـع إليهــا بالطيــور أمــا اليــوم فلــم أنصب شباكـــي لأن حبك قد ملكنــــي

و بعد إيمانها راحت تغنى للإله الجديد وحدها في الحديقة ولا أحد منا يريد أن يطرب لها ، ولكنى أذكر صوتها الذي اقتحم على حجرتي ذات صباح وأنا أمشط شعري :

> یا حی یا جمیـــل یا عظیـــم بك عم الفـــــرح وأتــرع الكـــون بالنـــور

هكذا كان قصرنا أول بيت يتردد فيه نشيد الإله الجديد . ودعينا لحضور الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على جلوس أمنحتب الثالث على العرش . وسمح لنا باصطحاب بنتينا لأول مرة لشهود احتفال بالقصر الفرعونى . وزينت البنتين لعلهما يروقان فى أعين صفوة الشباب ، فارتدت كل منهما ثوبا طويلا فضفاضا ، وطوقت منكبيها بمعطف مزركش قصير ، منتعلة صندلا ذا سيور ذهبية . دخلنا قاعة لا تقل مساحتها عن مساحة قصرنا كله ، مطوقة بالمشاعل ومقاعد المدعوين على حين تصدرها العرش بين جناحين من الأمراء والأميرات . وبين هذا وذاك ترامى فراغ للعازفين والراقصات العاريات ، وتنقل العبيد بين المدعوين والمدعوات يحملون المباخر والأشربة والأطعمة الفاخرة . وقلبت عينى بين صفوة الشباب فتمنيت لابنتى حور محب الضابط الواعد وبك المثال الموهوب . ورأيت الأعين تسترق النظرات إلى نفرتيتى آتية من نخبة الحاشية ، حور محب وبك وناخت وماى ، نخاصة عندما أتيحت الفرصة لبنات الأشراف ليرقصن ويغنين فى رحاب خاصة عندما أتيحت الفرصة لبنات الأشراف ليرقصن ويغنين فى رحاب الملكين . وقد رقصت حبيبتى برشاقة آسرة ، وغنت بصوت عذب

فاقت به المطربات المحترفات . لعلى في تلك الليلة شاركت ابنتى موت نجمت غيرتها الصامتة ، غير أننى عزيت نفسى قائلة « إذا تزوجت نفر تيتى خلا الجو لموت نجمت و تجلى نورها دون منافس » . وبدافع من حب الاستطلاع اختلست نظرات من نفر تيتى لأكتشف أن تتجه نظراتها فأدهشنى أن أراها منجذبة من أعماقها إلى معلمها الروحى . . ولى العهد ! . ونظرت نحوه فهالتنى غرابة صورته ورقته الأنثوية المثيرة للدهشة . ولما التقت عيناى بعينيها همست لى :

__ حسبته عملاقا ا

ولكن انبهارها غطى على دهشتها ، ولم تكن تحلم بما يدخره لها

القدر . ورجعنا إلى قصرنا ، فقلت لزوجي آي :

_ سيطرق بابنا الخطاب يا آى فدبر أمرك ..

فقال بهدوئه المألوف :

_ الآلهة ترسم لكل مصيره .

و بعد مرور يوم أو يومين فاجأني آي بقوله :

_ الملكة تيي ترغب في مقابلة نفرتيتي ..

فأذهلنا الخبر ، وسألته :

_ ماذا يعنى ذلك ؟

فتفكر مليا ثم قال:

ـــ لعلها سترشحها لوظيفة في القصر!

ــ ولكنك تعرف أشياء ولاشك!

فقال:

ــ كيف بمعرفة مايدور في رأس الملكة العظمي .

وأخذ يلقنها أصول الآداب المتبعة في لقاء الملوك ، وقلت لها : ـــ فليباركك آمون برعايته ..

فقالت بثبات:

ـــ إنى أسأل الإله الواحد رعايته ..

فهتف بها آی بحزم:

ــ حذار أن تتفوهي بحماقة في حضرة الملكة .

وذهبت نفرتيتي . ورجعت شديدة الانفعال فطوقتني بذراعها وأجهشت في البكاء ، أما آي فقال :

ــ اختارتها الملكة زوجة لولى العهد ا

عصف الخبر بأفئدتنا عصفا . سمت به حبيبتى نفرتيتى فوق الغيرة والمنافسة . هاهى تفتح لنا باب الحظ السعيد لننفذ منه إلى الأسرة المالكة . لقد أظلنا حظها بجناحيه العريضين وحلق بنا فوق الجميع . من أجل ذلك هنأتها من أعماق قلبى ، وكذلك فعلت موت نجمت . وراحت تحدثنا عما دار بينها وبين الملكة العظمى ، ومن شدة تأثرى لم أتابعها بالدقة المتوقعة ، وليس فى ذاكرتى اليوم إثارة منه ، وماهمية الحديث إذا قيس بالنتيجة التى انتهى إليها ؟. وتم الزواج فى حفل رائع أعاد إلى ذاكرة المخضرمين ذكرى زفاف الملك أمنحتب الثالث . وصرنا جميعا ضمن الأسرة المالكة ، واختارتنى حبيبتى لوظيفة المربية الخاصة لها ، وهو مركز فى القصر يلى مركز الأميرات مباشرة ! . وبالزواج صارت نفرتيتى والأمير وحدة لا تتجزأ ، ولا يفرق بين نصفيها إلا الموت . وقد شاركته الأفراح والأحزان إلى ما قبل النهاية بساعات ، ودبرت له شئون ملكه بمهارة امرأة خلقت للعرش ، وشاركته حمل

رسالته الدينية كأنها كاهنة مختارة حقا بعناية الإله الواحد . صدقني لقد كانت ملكة عظيمة بكل معنى الكلمة . لذلك صعقت عندما علمت بهجرها المفاجئ لزوجها في ذروة محنته . ولعله أول قرار اتخذته دون علمي فهرعت إليها في قصرها ، وجلست عند قدميها مستسلمة لنوبة من البكاء . ولم يبد عليها أنها تأثرت لحالي ، وقالت لي بهدوء :

ــ اذهبی بسلام ..

فقلت برجاء:

- إنهم يذهبون وقاية للملك من أي شر.

فكررت ببرود:

- اذهبی بسلام .

فتساءلت في حيرة :

ــ وأنت يامولاتي ؟

فقالت بيساطة:

ــ لن أغادر هذا القصر .

فهممت بالكلام ولكنها قاطعتني بنبرة آمرة :

- اذهبی بسلام .

وغادرتها كأتعس امرأة على وجه الأرض . وفكرت طويلا فيما دفعها إلى الاختفاء ، فلم أهتد إلا إلى فرض واحد ، هو أنها كرهت أن تشهد هزيمة الملك وإلهه فلاذت بالهرب خلال لحظة يأس طارئة ، على أن ترجع إليه بعد ذهاب الجميع . ولا أشك في أنها سعت إلى ذلك ولكنها منعت بالقوة . ولا تصدق أى تفسير آخر لهجرها القصر . سوف تسمع أقوالا متضاربة ، وسيدلى كل رجل بما يؤكد أنه الحق ،

بينا ينطق عن هواه . لقد علمتنى حياتى بألا أثق فى أحد ولا أصدق أحدا . وهاهو الزمن يمضى وأنا أتساءل دائما أكان مولاى إخناتون يستحق تلك النهاية المحزنة ؟. كان النبل والصدق والحب والرحمة فلم لم يبادله الناس نبلا بنبل ، وصدقا بصدق ، وحبا بحب ، ورحمة برحمة ؟. لماذا انقضوا عليه كالوحوش يمزقونه ، ويمزقون ملكه كأنه عدو أثيم ؟!. ولقد رأيته فى المنام منذ أعوام مطروحا على الأرض والدم ينزف من جرح غائر فى عنقه ، فاستحوذ على شعور قوى بأنهم قتلوه قتلا مدعين كذبا أنه مات ميتة طبيعية .

وسكتت وهي تنظر فيما أمامها بأسي ، ثم تمتمت :

ــ لقد عاشرنا رجلا لايتكرر .

« موت نجمت »

فى بدء الحلقة الرابعة ، جميلة رشيقة ، يشع من عينيها العسليتين ذكاء ، شعرت فى محضرها بوجود مسافة بينى وبينها لايمكن أن تعبر . وهى ابنة آى وتى وأخت نفرتيتى ، وتقيم فى جناح خاص بها فى قصر آى . وثمة لغز رابض فى حياتها وهو أنها لم تتزوج رغم كثرة خطابها . وما كدت أجلس بين يديها وأبسط أوراقى حتى أنشأت تقول :

ــ قدر لناأن نشارك في مأساة إخناتون المارق فقد اختير أبي الحكيم آي معلما له ، فحمل أبي إلينا أخباره وأفكاره ، ومن أول الأمر أسأت به الظن ، واتهمت عقله ، ثم أثبت الأيام صدق شعورى وتفكيرى . وكان لنفرتيتي موقف آخر دهشت له الأسرة أما أنا فلم أدهش له . كانت تحب دائما أن تلفت الأنظار بتحديات مفتعلة ، وتود أن تثير من حولها عواصف المناقشات . أجل كانت ذكية ولكنها لم تكن صادقة ولا مخلصة ، هذا ما أغراها بعبادة آتون وتفضيله على آمون ، وما دعاها أخيرا للكفر بجميع الآلهة والإيمان بإله لم نسمع عنه من قبل . وقد سمعتها مرة وهي تقول لأبي :

- أبلغ يا أبى ولى العهد أننى مؤمنة بإلهه .
 - فقال لها أبي متجهما :
- _ إنك حمقاء يا نفرتيتي ولا تقدرين العواقب !

وكنت بسبب تجديفها أخاف أن تحل اللعنة بنا جميعا . لقد بقى إيماني بآلهتي حيا في قلبي لا يتزعزع . أجل أعلنت إيماني بالإله الجديد لانتمائي للأسرة الملكية ، وبقصد أن أبذل ما أستطيعه في , موقعي الجديد دفاعا عن آلهتي المقدسة ، ولكن إيماني بآلهتي لم يهن قط . وأتيح لي أن أرى المارق لأول مرة في حفل العيـد الثلاثيني للجلوس على العرش ، فعجبت للشبه الخارق بين أفكاره المنحر فة وبين صورته المتنافرة الجامعة بين الهزال والقبح . لذلك فلا تأخذ مأخذ الجد ما قد تسمع عن الحب النبيل الذي جمع بين قلبي المارق وملكته العظمي نفرتيتي ، فإني أعرفها حق المعرفة ، وأعرف المثال الـذي حلمت به كفتي لأشواقها ، إنه لا يمت بصلة للفتي الهزيل القبيح العاجز الذي خلق نصف أنثى ونصف ذكر . وكانا يزعمان أنهما يعيشان في الحقيقة ، أما هو فكان يعيش في الجنون ، وأما هي فعاشت في الكذب والمخديعة ، ولم تحب سوى العرش والسلطان . وفي الحفل غلبتها طبيعتها الدفينة فأعلنت عن جمالها بلا حياء كأنها امرأة محترفة ، ورمت شباكها حول حور محب ولكنه لم يكن يكترث لذلك النوع من النساء المبتذلات . ولما دعينا نحن بنات الأشراف للرقص والغناء ، قمت أنا فرقصت في احتشام ، واخترت أغنية موجهة لفرعون :

> أنت تجىء كالشبع فينتهى الجوع أنت تجىء كالثياب فينتهى العرى أنت كالسماء الهادئة بعد عاصفة هوجاء تعطى الدفء لمن أصابه البرد

أما نفرتيتي فقد أذهلت الجميع برقصتها الداعرة ولكنها سرقت استحسان الفاسقين وما أكثرهم ، ثم اختارت أغنية خليعة فغنت : في صحتك

> اشربـــــى حتــــى تثملــــى ولا تضيقــــى ذرعــــا بالسرور لقــــد حضرت ونصبت الفـــخ لنفتــــح الفـــخ سويــا أنــا وأنت معـا بمفردنـا ما أجمـل أن تكـون معــى هنـاك

ونكس أبى ذقنه وتلعثمت أمى . وتهامست المغنيات المحترفات « ما أجدر هذه البنت بأن تغنى معنا » . ورجعنا إلى قصرنا آخر الليل وهى تحلم بأن يطرق بابنا فى الصباح حور محب ولكن الأقدار كانت تعد لنا مفأجاة أخرى إذ كانت تعدها لمصر والإمبراطورية . دعيت الماكرة إلى مقابلة تبى الملكة العظمى ورجعت زوجة لولى العهد . وقلت لأمى ألا يدعم فرعون شرعيته عادة بالزواج من أميرة ذات دم ملكى ؟ . فقالت لى أمى :

ـــ لا أهمية لذلك إذا كان فرعون صاحب قوة مسيطرة ، وقد وافق على اختيار عروس من بنات الشعب لابنه كما سبق أن اختار لنفسه . وقبلتني هامسة في أذني :

- كونى عاقلة يا موت نجمت ، لاشك أنك أفضل منها ولكن لا حيلة لنا مع المحظ ، فاقنعى بأنك ستصنيرين من الأميرات ، وبأن الدنيا ستقبل عليك بقدر ما تبدين من إخلاص لأختك !

فقلت لها بصراحة ووضوح:

ــ سأتبع الحكمة مع المحافظة على الكرامة والإخلاص.

وهو ما حرصت عليه دائما ولم أنحرف عن خطه المستقيم . ولما

خلوت إلى نفرتيتي سألتها :

_ هل راق لعينيك حقا ؟

ومع أنها أدركت من أعنى إلا أنها تساءلت متغابية :

ــ من تعنين يا موت نجمت ؟

_ زوجك المقبل!

فقالت بحماس:

ـــ إنه معجزة بين الرجال!

فسألتها بعناد :

ــ أهو كذلك كزوج ؟

· فأجابت بغموض :

ـــ لا يمكن الفصل بين الكاهن والزوج ا

وقرأت أفكارها كما أقرأها عادة . سوف تقاسمه العرش ملكة وكاهنة . ولن يعجزها أن تظفر بمن يشبع عواطفها المتعطشة للحب والحياة . وقد مارست ذلك بكل طمأنينة ، معتذرة أمام ضميرها بعجزه ، لائذة بسياسته المعلنة في الاعتماد على الحب ورفض العقاب والعنف ، فلم تخشمن جانبه انتقاما كسائر الفاسدين من معاونيه . وقد توكد لي عجزه وشذوذه من خلال اتصالاتي اليومية بحريمه . هناك يعرفون الحقائق التي تخفي عن أقرب المقربين من رجال الدولة . هناك تندروا بعجزه . وهنا فضحوا سر العلاقة الآئمة بينه وبين أمه ، المرأة

الوحيدة التي عبر عجزه في حضنها ، والمرأة الوحيدة التي أنجبت له ابنة . وذاك شذوذ لم تعرفه بلادنا على مدى تاريخها . من أجل ذلك ثبت لدى أن بلادى تمضى نحو مصير أسود . وعاهدت ضميرى أن أقف مع الحق حيث يكون . ومات أمنحتب الثالث ، وتبوأت نفرتيتي العرش ملكة عظمى مكان تيى . وعشنا أياما كثيبة في طيبة ، ثم انتقلنا إلى أخت آتون أجمل مدينة عرفها الإنسان . واستقبلنا من الزمان أيام سرور ونصر ورخاء ، وأمهلت الآلهة للمارق ، فتركته يلغى وجودها ويصادر أوقافها ، ومهدت له أسباب النجاح والسرور ، حتى ظن الجاهل أن الفوز المين قد تقرر للإله الجديد ولرسالته الخيالية في الحب والسلام . وقلت لأمى وليس معنا ثالث :

_ أينٍ الآلهة ؟، مالها لا تغضب لما حاق بها ؟

وإذا بأمى تقول :

ــ ذلك شاهد على صدق الإله الجديد ياموت نجمت ! فرمقتها بذهول ، وخيل إلى أن دنيا تغرب وأن دنيا أخرى تشرق لاسبيل إلى الشك فيها . ولكن ليل الحلم أخذ ينقشع ويتلاشى ،

وزمجرت عواصف الأحزان مكتسحة الداخل والخارج معا . وكلما عضنا الدهر قلت لأبي :

_ ها هو آمون يكشر عن أنيابه .

فيقول لى :

ــ لا ترددي أقوال الكهنة الحاقدين 1

فأقول له :

ـــ حدثني ياأبي عن واجبك في هذه الظروف ؟

فيقول باستياء:

ـــ لست في حاجة إلى من يذكرني بواجبي ياموت نجمت ! ومرة سألت نفرتيتي :

_ ألا تفعلين شيئا للدفاع عن عرشك ؟

فقالت لى بحماس لم يجز على :

ــ نحن نفني في خدمة عرش الإله الواحد .

لم تكن مخلصة . ولم تعرف الإخلاص الحقيقي في حياتها . كانت تخشى إذا حذرت زوجها من مغبة عناده أن ينزع الثقة منها فيختار امرأة أخرى ملكة وكاهنة . ومن خلال محاولاتي الحذرة مع الرجال اكتشفت إخلاص توتو وزير الرسائل فاستمر الحوار بيننا حتى تكاشفنا تماما ، ثم كان الوسيط بيني وبين كاهن آمون الأكبر . وكانت تجربة أليمة خضتها بعذاب شديد . كان على أن أختار بين إخلاصي لأسرتي الجديدة وبين الولاء للبلاد والآلهة . واخترت بعد أن دفعت ثمن اختياري ألما وعذابا، هكذا انضممت إلى المعسكر الآخر ، معرضة عن مصلحتي الشخصية وسعادتي الأسرية . وقال لى توتو يوما :

_ الكاهن الأكبر يطالبك بالسعى لضم الملكة إلينا!

فقلت له:

_ لقد سعيت إلى ذلك من قبل أن أكلف به ، ولكني و جدتها لا تقل جنونا عن المارق .

و بناء على ذلك أرسل الكاهن الملكة تيى إلى أخت آتون ، ثم جاء بنفسه ليلقى على الرجال إنذاره الأخير . وشد ما عارض تو تو ذلك . كان يقترح الانقضاض عليهم دون إنذار ، ووضعهم جميعا في الأغلال ، وإشعال النار في المدينة المارقة . وكنت أو دأن أضم حور محب قائد الحرس إلينا ، فهو

صاحب القوة الحقيقية في المدينة، وعرف دائما بالصلابة والاستقامة. ومن خلال الأحاديث التي دارت بيني وبينه آنست منه اتفاقا في الرأى يخفيه الحذر وافتقاد الثقة المتبادلة. ولما لاحت في الأفق نذر الحرب الأهلمة قلت له:

ــ علينا أن نعيد النظر في مواقفنا .

فرمقنى بنظرة متسائلة فقلت بصراحة:

_ لا يمكن أن نترك مصر تحترق وتصير رمادا .

فسألني بدهاء :

_ ألم تفاتحي أختك الملكة في ذلك ؟

فقلت بصراحة أذهلته :

ـــ أنها لا تقل جنونا عن الملك !

فسألني باهتمام:

ـــ ماذا تقترحين ؟

فقلت بحدة:

_ كل شيء مباح لإنقاذ البلاد ...

ثم كانت النهاية التي عرفتها. نهاية مأساة فاقت مأساة غزو الهكسوس لبلادنا في الماضى . مأساة خلقها جلوس مجنون على العرش مستغلا قدسية العرش التقليدية في ممارسة نزواته. لا شك في أن ذنب نفرتيتي أثقل من ذنبه لما خصت به من ذكاء ودهاء ، ولكنها لم تهتم إلا بذاتها وطموحها ، فلما تولى عنه المجدهجرته في الحال ، منضمة في الظاهر إلى أعدائه ، مرشحة نفسها ملكة تدعم العرش الجديد ، ولكن حيلتها لم تنطل على أحد ، فانقبرت في وحدة مظلمة لتجتر العذاب والندم.

« مرى رع »

فى الحلقة الرابعة ، أسمر خمرى ، نحيل ، ذو نظرة حزينة تصلح عنوانا لمأساة ، يعيش فى بيت صغير ، بلا رفيق أو خادم ، ذلك الذى كان يوما الكاهن الأكبر للإله الواحد ، فى مدينة النور أخت آتون . وقد زرته فى بلدته دشاشة على مبعدة من طيبة بمسيرة يومين إلى الشمال . ولما قرأ رسالة أبى سألنى باسما :

ــ ولم تتجشم هذا التعب ؟

فقلت ببساطة:

_ لأعرف الحقيقة .

فقال و هو يهز رأسه في أسى:

_ حسن أن يوجد ولو فرد واحد من طلاب الحقيقة .

ثم مضي يقول:

لعلى الشخص الوحيد الذى حمل بالقوة من أخت آتون بعد أن رفض التخلى عن مولاه ، وقد سكت الصوت الإلاهي وتهدم المعبد ولكن الدهر لم ينطق بالكلمة الأخيرة بعد .

ورنا إلىّ طويلا بعينيه البنيتين ومُضى يقول :

_ أسعدنى حظى فى صباى بأن أكون ضمن حاشية الأمير ، فملت مثله إلى الأمور الروحية ، ودرسنا معا ديانة آمون وديانة آتون . ومثل كثيرين فتنت به وأخذت بحديثه الساحر ، وروعت بنضجه السريع الخارق للمألوف . وقد باركنى بقوله الذى غزا به قلوب أتباعه ، فقال لى :

ــ إنى أحبك يامرى رع فلا تضن على بحبك .

فتغلغل حبه فى قلبى حيث لم تبلغ عاطفة من قبل ، حتى أباح لى خلوته على شاطئ النيل فى أى وقت أشاء . وهى خلوة فى الطرف الغربى من القصر ، تطل على النيل ، فى هيئة مظلة تقوم على أربعة أعمدة تحدق بها أشجار النبق والنخيل ، أرضها من العشب النضير ، تتو سطها حصيرة خضراء ووسادة . كان يستيقظ عند الفجر فيمضى إلى الخلوة ينتظر شروق الشمس ، ويتغنى لقرصها البازغ من وراء الحقول . وما زال صوته العذب يجيش فى صدرى ، وينتشر فى حواسى مثل وائحة البخور المقدس وهو يترنم :

إنك تسطع جميلا في جبل النور في السماء يا آتـــون الحـــى يامن عاش أولا إنك إذا اشرقت في جبل النور الشرقــى ملأت كل بلـــد بجمـــالك إنك جميــل ، إنك عظيـــم إنك تتــلألأ عاليــا فوق كل بلـــد وأشعتك تضم البلاد

وكل شيء خلقته

إنك بعيـد ولكنن أشعـتك علــــى الأرض

وكان يذوب من الوجد ، وتنبثق من وجهه الصبيح الأنوار ، ثم نتجول في الحديقة وهو يقول :

_ لا يوجد سرور خالص إلا في العبادة .

ذلك أن حياته لم تخل من منغصات . وذات مرة تشكي لي قائلا :

ـــ يأبى أبى إلا أن يجعل منى مقاتلا يا مرى رع ! لم يمر تدريبه العسكرى الفاشل دون أن يترك فى نفسه ألما يحز . أو ينظر فى المرآة المؤطرة بالذهب الخالص ويقول باسما :

_ لاقوة ولاجمال!

أما موت أخيه الأكبر تحتمس فقد حفر في وجدانه جرحا غائرا لعله لم يبرأ منه إلاحينما أصيب بجرح أشد بموت ابنته المحبوبة ميكيتاتون . شد ما بكي أخاه الذي نصبه موته وجها لوجه مع حقيقة الموت الصلبة الغامضة . وسألني :

_ ماالموت يامرى رع ؟

فلذت بالصمت متحاشيا الإجابات التقليدية التي يضيق بها . فعاد يقول :

ـــولا آی نفسه يعرف ، قرص الشمس وحده يشرق بعد الغروب ، أما تحتمس فلن يرجع إلى هذا الوجود مرة أخرى ا

وهكذا أعلن حرباً أبدية على الضعف والقبح والحزن . ومضى فى طريقه المجهول مثل شعاع الشمس ، تنذر بوادره كل يوم بجديد ، حتى لقيته ذات صباح مشرق شاحب اللون في خلوته ، مستقر النظرة ، ثابت الجنان ، فقال لى دون أن يرد تحيتى :

_ ليست الشمس شيئا يامرى رع .

فلم أدرك مقصده فجذبنى إلى مجلسه فوق الحصيرة وقال : ـ استمع إلى الحقيقة يامرى رع . ليلة أمس أسكرنى الشوق بلا خمر ، وتجسد لى الظلام جليسا أنيسا كالعروس المتجلية ، وحلقت بى نشوة آسرة فى الفضاء ، وهناك عبر ألف خيال وخيال (م ٧ ـ العائش فى الحقيقة) بزغت الحقيقة للفؤاد أقوى من أى منظر تراه العين، وترامى إلى صوت أجمل من عبير الأزهار فقال لى د املاً وعاء قلبك بأنفاسى ، واطرد عنه ما ليس منى ، أنا القوة التى متسلل منها قوى الوجود ، أنا النبع الذى تتدفق منه الحياة ، أنا الحب والسلام والسرور ، املاً وعاء قلبك منى ويسره مشر با للمعذبين فى الكون » .

ومن شدة تألقه تراجع رأسي في انبهار ، فقال لي :

ـــ لاتخف يامري رع ، ولاتبتعد عن السعادة !

فغمغمت وأنا ألهث :

ــ ياله من نور !

فقال بعذو بة صافية:

... تعال لتعيش معى في الحقيقة ..

فاعتدلت في جلستي وقلت:

_ إنى معك إلى الأبد .

ومنذ تلك الساعة السعيدة صار أول كاهن للإلله المواحد الذي لا إله غيره ، وغدا معلمي وأستاذي ، ورائد من لبوا النداء . وقلت له : ـــ آمنت بإلهك .

فقال بحبور:

... أحسنت ، ولتكون أول كاهن في معبده .

وأعلن إيمانه لخاصته ولكنه لم يتعرض للآلهة إلا فيما بعد ، و بالتدر ج أيضا ، فأعلن كفره بالآلهة الزائفة أولا ، ثم ألغاها ووزع أوقافها على الفقراء في خطوة تالية . أما على عهد إمارته فلم يكن بوسعه في حكم والده أن يكون صاحب قرار . وقد تزوج من نفرتيتي وهو ولى للعهد ، فوهبه الزواج سعادة كبرى ، غير أن أسعد ما أسعده حظى به من إيمانها الصادق بإلهه . وفي أخت آتون تبوأت مركز الكاهن الأكبر للإله الواحد ، ولما عزم مولاي على مصادرة المعابد قلت له :

ـــ إنك تتحدى قوة ذات نفوذ قديم على الناس من النوبة حتى البحر .

فقال لي بثقة:

__ ما الكهنة إلا دجالون ، يستعبدون الضعفاء ، ويسنشرون الخرافات ، وينهبون الأرزاق ، معابدهم مواخير ، وقلوبهم ثملة بحب الدنيا ..

فاكتشفت فيه قوة حقيقية أخفاها عن الأعين تهافت بنيانه ، و شجاعة لا يحظى بجزء منها حور محب قائد الحرس أو ماى قائد الحدود . و قد حسبه أناس لغزا لا يحل لكنه وضح بالنسبة لى مثل نور الشمس . لقد فنى في حب إلهه و أحبه الإله فكرس حياته لخدمته ملقيا بالعواقب جانبا ، فلم يلتبس على قرار من قراراته و لا موقف من مواقفه . لم أدهش لسلوكه في رحلته المشهورة حول عالم إمبراطوريته ، ولم أدهش لتمسكه برسالة الحب والسلام حتى في أحرج الظروف ، ولم أدهش لموقفه الأخير عندما تخلى عنه أقرب المقربين إليه . كان يعيش في رحاب الإله ويصدع بأمره ، و لا يبالي بعد ذلك بما يحيق به ، إذ كيف يمكن من ينغمس في الحقيقة أن يكترث لمكر الساسة ودهاء يمكن من ينغمس في الحقيقة أن يكترث لمكر الساسة ودهاء العسكريين ؟! وقد رموه بالخيال والحلم والجنون ، فكان هو العائش في الحقيقة ، و كانوا هم الخياليين الحالمين المجانين الغارقين في أوهام الدنيا الفاسدة . ولم يكن العرش يهمه كما يهم الملوك العاديين . بل

إنني أذكر أنه عندما دعى من رحلته لتولى العرش بعد وفاة أبيه ، تجهم وجهه وتساءل :

_ ترى هل تشغلني الشواغل عن إللهي ؟

فقلت له بحماس صادق:

_ بل إنك مدعو يامولاي لوضع قوة العرش في خدمة الإله ، كما التزم أجدادك بخدمة آلهتهم الزائفة .

فسرى عنه وتمتم:

... نطقت بالحق يامرى رع ، فكما قدموا لآلهتهم قرابين من البشر المساكين ، سأقدم قوى الشر قرابين لإلهى ، محطما الأغلال التي يرسف فيها من لاحول لهم .

واعتلى العرش ليخوض أشرس معركة خاضها ملك ولكن في سبيل الحقيقة والحب والسلام وسعادة البشر ، وأثبت في غمارها أنه أقوى عشرات المرات من تحتمس الثالث نفسه ، وكان رجاله يمثلون أمام عرشه فتصرف نفرتيتي أمورهم اليومية أما هو فلا يني عن إعادة خلقهم من جديد ليكونوا جديرين حقا بالنعمة الإلهية والنبل البشرى . وتجلى سحره كأقوى ما بكون في نشر دعوته بالأقاليم ، وقد فتن الناس به وسكروا بخمر رسالته وألقوا عليه محبتهم مع الأزهار والرياحين .

_ ثم جاءت سحب الأحزان يتبع بعضها بعضا مسوقة بأنفاس الحقد في داخل البلاد و محارجها . وتلقاها كل رجل بحسب قوة إيمانه ، ولم يعبأ بها مولاي وراح يردد :

_ لن يخذلني إلهي .

وقال لي يوما في المعبد :

ـــ الرجال ينصحونني بالاعتدال وإلهي يأمرني بالإيمان فأيهما أتبع يامري رع ؟

ولم يكن سؤاله الساخر في حاجة إلى إجابة . ولما مضت الأزمة في الاشتداد جاء حور محب لمقابلتي في المعبد وقال لي :

ــ أيها الكاهن الأكبر ، إنك أقرب الرجال إلى الملك .

فأجبته وأنا أحدس ماسيقول:

_ تلك نعمة الإله على .

فقال بصراحة:

ــ الأمور تقتضي تغيير السياسة .

فقلت له بثبات:

_ أستمع لصوت الحقيقة وحدها .

فقطب فيما يشبه الضجر وقال:

... أتو قع أن أسمع كلاما معقولا.

فقلت بحدة:

_ لا تفاهم إلا بين المؤمنين .

ولما علمت بقرارهم في التخلى عن الملك بحجة الدفاع عن حياته قلت لآي :

_ من ناحيتي لاأقر العودة إلى الكفر .

ورفض مولاى التراجع خطوة واحدة ولكن كانت له خطته أيضا في تجنب الحرب الأهلية فكان عازما على مواجهة الشعب وحده والجنود المتمردين ، وكان كامل الثقة في قدرته على إعادتهم إلى حظيرة

الإيمان ، ولكن الحاشية آمنت بأنه سيقتل حتما وأنهم سيلحقون به جزاء بقائهم على الولاء له . وتخلى عنه الجميع ، وقد ضموني إلى قافلتهم المرتدة بقوة الجند ، وأمروا الحرس بمنعه بالقوة إذا صمم على مواجهة الشعب . وحيل بينه وبين ما يريد بالفعل ، ووجد نفسه وحيدا حبيسا في قصره ، حتى نفرتيتي ذهبت مع الذاهبين ، وعند ذاك غزا الحزن قلبه أمام ضعف الإيمان الذي بذل حياته الغالية في بثه وتثبيته . وقيل لنا عقب ذلك إن المرض تمكن منه وقضى عليه . والحق أني أشك في ذلك ، وأرجح أن الأيدى الآثمة امتدت إليه في عزلة وانتزعت منه روحه الطاهرة الخالدة . وقد مات دون أن يعلم بأنني ما تخليت عنه إلا بالقوة ، وفي اعتقادي أن نفرتيتي أبعدت عنه بالقوة أيضا ، ولا أتصور غير ذلك أبدا .

وصمت مرة أخرى ليتنهد ثم رنا إلى طويلا وقال:

__ولكنه لم يمت ، ولا يمكن أن يموت ، إنه الحقيقة الباقية والأمل المتجدد ، ولينتصرن عاجلا أو آجلا ، ألم يعد الإله بأنه لن يخذله ؟! ومال إلى خزانة فاستخرج منها لفافة من البردى فأعطاها لى وهو يقول :

_ إنها تحوى رسالته وأناشيده ، اقرأها يا فتى ، وليستجيبن لها قلبك المحب للحقيقة ، فإنك لم تقم برحلتك لغير ما سبب ..

« مای »

سعيت إلى لقائه في رنو كولبورا على الحدود حيث يقيم في خيمة بين جنوده من جيش الحدود . كان على عهد إخناتون قائدا لجيش الحدود ، ومازال يشغل مركزه بكل جدارة في العهد الجديد . وقد وجدته كهلا عملاقا جاد الملامح معتزا بنفسه لحد كبير . وبعد إطلاعه على خطاب والدى قال بانفعال مرحبا بالفرصة التي دعته للتنفيس عن صدره :

سد ذلك المارق ، مجهول الأب ، الذى أذل بشذوذه أعناق الرجال !. لقد سكتت طبول القتال ، ونكست رايات المجد ، ليرتفع صوت الغناء والطرب من فوق عرش الفراعين من حنجرة امرأة قبيحة الوجه متنكرة في إهاب الرجال . وقد أرغمت بأنا قائد الدفاع عن الإمبر اطورية بعلى التجمد وأوصال الولايات تتمزق وتقع في قبضة المتمردين والأعداء ، واستغاثات المخلصين من أصدقائنا تتلاشي في الهواء . أفقدنا ذلك المخبول شرفنا العسكرى ، وجعلنا هزأة للمعتدين وفريسة سهلة لقطاع الطرق . ومن حسن حظى أنني لم أكن ضمن حاشيته وإن اقتضى واجبى التردد على أخت آتون بين الحين والحين . وخور محب وناخت لغر مشوه ، وولائهم المذهل له ما بين القصر وحر محب وناخت لغر مشوه ، وولائهم المذهل له ما بين القصر والمعبد . وكنت ومازلت مخلصا لآلهة بلادى وتقاليدها المتوارثة ، والمعبد . وكنت ومازلت مخلصا لآلهة بلادى وتقاليدها المتوارثة ، يوم بلغني كفره غضبت غضبا شديدا ، وعقدت العزم على الانضمام إلى

المؤمنين إذا شقوا عصا طاعته . ويوم صدر الأمر بإغلاق المعابد وتشريد الكهنة أيقنت من أن اللعنة الكبرى ستحيق بنا ، وستوجه ضربتها إلى الجميع غير مفرقة بين الخبيث والطيب . ولدى زيارة لى لطيبة ، جاءنى بليل الكاهن الأكبر لآمون ، وسألنى:

__ هل تجد حرجا في هذا اللقاء ؟

فأجبته بصراحة أدهشته:

_ لى الشرف ، وقصرى رهن إشارتك .

فشكرني وقال :

_ إنك من جيل الأبرار ياماى . انظر إلى الناس كيف فقدوا السلوى والعزاء ، كان أهل الإقليم يلوذون بآلهة ويقدمون القرابين ، ويفزعون إلى كاهنهم في الملمات فيرشدهم في الحياة وحين الموت ، ضاع المساكين كالأغنام الضالة ..

فقلت بامتعاض شدید :

_ وما جدوى التشكى ؟! ألا ترى أن الواجب يطالبنا بالتخلص منه ؟

فتفكر قليلا ثم قال:

ــ ولكن ذلك سيجر علينا حربا طاحنة ا

_ ألا يوجد حل ؟

فقال بيقين :

ـــ إقناع رجاله المقربين !

_ ياله من أمل بعيد .

فقال الرجل بحذر:

ـــ لن نعمد إلى وسيلة يائسة قبل أن نستنفد جميع الحيل .. فعاهدته قائلا :

ـــ ستنجدون جيش الدفاع وراءكم في اللحظة المناسبة .

ولكن نجاح حملة التحريض عليه اقتضت وقتا طويلا ، حلت فيه الكارثة بالبلاد ، فلم يبق إلا أن ننقذ ما يمكن إنقاذه من تحت الأنقاض . ولقد تسماعل كثيرون عن سر المأساة . أقول لك إن سرها يكمن في ضعف المارق ، ضعف جسده وعقله معا . لقد أفرطت أمه في تدليله فنشأ شديد الحساسية لحد المرض ، داعيا بانحطاطه لدى المقارنة بأقرامه المميزين مثل حور محب وناخت وبك ، فأخفى شعوره بالهوان وراء ستار رقيق من التواضع الأنثوي والعذوبة المخنثة ، على حين بيت الغدر لكل قوى ، إلنها كَان أو كاهنا ، ليخطر وحده في الساحة ، محتكرا لصوت الإله الذي اخترعه ، ولقوته غير المحدودة . من ناحية أخرى تصدى ضعفه لكل طامع كإغراء لايقاوم : أجل لقد هرع إليه الرجال لا خوفا من قوته ولكن طمعا في ضعفه . من أجل ذلك أعلن رجال الإمبراطورية إيمانهم برسالته ، فبعث إليهم برسائل الحب حين تمردهم بديلا عن جيش الدفاع . ومن أجل ذلك أعلن الإيمان به رجال لا يرتقى الشك إلى عقولهم مثل آي وحور محب وناخت ، وامرأة داهية مثل نضر تيتي . كان ضعفه الطعم الذي جُذِبَ إليه المنافقون والطماعون واللصوص والفاسقون . ولبثوا يتابعون أناشيده في المعبد ثم ينهبون الأموال ويستغلون العباد ، حتى تهددهم الموت فتخلوا عنه وانضموا إلى أعدائه محملين بغنائمهم . لذك أعلنت رأيي للكاهن الأكبر عَند اشتداد الأزمة . قلت له :

_ لا تقّم بزيارتك لأخت آتون ، لا تنذرهم ، دعني أزحف عليهم

وأبيدهم ليستقر قلب العدالة ..

وأيدنى توتو بحماس أشد ولكن الكاهن الأكبر مال مع الحلم وحقن الدماء ، فقال لى :

_ حسبنا ماأصابنا .

وأدركت ما يجول بخاطره . إنه رجل داهية وينظر إلى بعيد . فقدر ولا شك أنه إن أذن لى في القتال فقضيت على المارق ورجاله ، أحرزت بحق الصدارة والبطولة ، وحزت بذلك أقوى الأسباب لاعتلاء العرش . وعند ذاك سيجد على العرش ملكا قويا لا يمكن أن يتجاوز حجمه الطبيعي في رحابه . لذلك جنح إلى السلم واختار للعرش غلاما لاحول له ليكبر ويتضخم على حسابه . وهاهم اليوم يحومون حول العرش ، الكاهن و آى و حور محب ، ويتربصون بصاحبه . هكذا تجرى الأمور في مصر التي نضب فيها معين الإخلاص .

على أى حال فنحن اليوم خير مما كنا أمس . لقد هُجر المارق مع ضعفه فمات غما ، وهاهى الداعرة تنتظر النهاية وحيدة بين أطلال المدينة الكافرة .

وسكت ماي مضفيا على نبرته نغمة الختام ، بيد أني سألته :

ــ ونفرتيتي يا سيدى القائد ؟!

فقال بلا مبالاة:

_ امرأة جميلة خلقت لاحتراف الدعارة فشاء حظها أن تمارس هوايتها في عشق الرجال من فوق العرش ، ولا تصدق ما يحتمل أن تسمعه عن كفاءتها كملكة ، فلو كان بعضه حقا لا كله ما سقطت البلاد في عهدها في هوة الفساد والخراب ، وقد تخلت عنه في اللحظة التي فقد فيها نفوذه ، ولكنها خابت في ركوب السفينة الجديدة !

(محو))

زرته فى قريته جنوب طيبة يعيش من الزراعة بعد أن كان رئيسا لشرطة إخناتون فى أخت آتون . وهو فى الأربعين من عمره ، غليظ القسمات واضحها ، قوى البنيان ، تطل من عينيه الصغيرتين نظرة حزينة . ولما قرأ رسالتى شبك أصابعه فوق رأسه داعيا بحسرة ذكريات تولت ، وأنشأ يقول :

- جفت ينابيع السرور من بعده ، سامحتك الآلهة يا مصر ! بدأت علاقتى به بطريقة لا تتكرر ولا يحلم بمثلها أمثالى . كنت جنديا من حرس القصر الفرعونى ، وكنت ألمحه فى الحديقة من بعيد . وذات صباح رأيته مقبلا نحوى كأنما اكتشفنى لأول مرة فتحولت إلى تمثال بين يديه . نظر إلى طويلا حتى شعرت بنظرته تجرى مع دمى وتتردد مع أنفاسى . وإذا به يسألنى :

- _ ما اسمك ؟
 - __ محو .
- _ من أي مكان أنت ؟
 - ـــ من قرية فينا .
 - __ صناعة أهلك ؟
 - _ فلاحون .
- _ لماذا اختارك حور محب في الحرس؟
 - _ K أدرى .

... إنه يختار الشجعان .

فانتفض قلبي سرورا ولم أنبس ، فقال بثقة :

_ إنك شاب صادق يا محو .

فطرت من الفرح ولزمت الصمت ، وإذا به يسألني :

ــ أتقبل صداقتي ؟

فتلاشى عقلي من الذهول وتمتمت:

ــ ما أرفع هذا الشرف عن متناولي .

فمضى باسما وهو يقول:

ــ سنلتقى كثيرا أيها الصديق .

تلك واقعة حقيقية ، فهكذا كان يختار رجاله . وترامت إلينا أنباء عن عبادته لآتون ، وتجلى إله جديد له ، كما عزفت على كثب منا أناشيده . و ثفتح قلبى لكل ما يجىء منه . جذبنى إليه سحره النفاث وحبى العميق له . لعلى لم أفهم مما سمعت إلا القليل ، ولعلى تحيرت طويلا أمام إلهه الغامض الذى لا يتجسد فى تمثال ، ويعامل الناس بالحب دون العقاب ، ولعلى لم أكفر بآمون ، ولكنى آمنت حبا فى مولاى ، خير البشر وأعذبهم وأرحمهم . عاش فى الحب للحب ، لم يصدر عنه أذى لإنسان أو حيوان ، لم يلوث يده بدم ، ولم يعاقب مذنبا . ولما اعتلى العرش استدعانى وقال لى :

ـــ لا ألزمك بشيء تكرهه يا محو ، وسيجرى رزقك هنا أو هناك ، فهل ترغب في إعلان إيمانك بـالإلـٰه الواحد الذي لا إلـٰه غيره ؟ فأجبت دون تردد : ... أعلن إيماني بالإلثه الواحد يا مولاي ، وأعلن استعدادي للموت في سبيله .

فقال بهدوء:

ـــ ستكون رئيسا للشرطة ولكن لن يطالبك أحد بالتضحية بحياتك الغالية ..

كنت على استعداد كامل لمقاتلة الكهنة أنفسهم الذين ترعرعت في أحضان كلماتهم ورضعت حبهم وتقديسهم . ومع ذلك فلم تصدر عن يدى ضربة واحدة نحو أحد مذ عملت رئيسا لشرطته عدا ضربة واحدة انطلقت من يدى بلا إذن منه . ويوم تسلمت الرياسة قال لى :

__ ليكن سلاحك منذ اليوم زينة ، أدب الناس بالحب كما علمتك ، ومن لم يؤدبه الحب يؤدبه المزيد من الحب ..

وكنا نقبض على اللصوص فنسترد ما سلبوا ، ونهيىء لهم عملا فى المزارع ، ونلقنهم رسالة الحب والسلام . أما القتلة فيرسلون إلى المناجم ، وتوفر لهم أسباب الراحة والرزق ، ويتلقون فى أوقات الفراغ دروسا فى الدين الجديد . وكثيرا ما لقينا من ذلك ضروبا من الجحود والغدر ، ولكن حرارته لم تفتر أبدا ، وكان يقول :

ــ سترون قريبا شجرة الأمل مثقلة بالثمار .

كان إيمانه قويا راسخا متحديا لا يتزعزع ولا يهن ، ذلك الملك العجيب الذى شبع الهواء بالسرور فى مدينة النور ، وأثملت أناشيده قلوب الرجال والنساء والطير . كان يومه يمضى على غير ما عهد الملوك من آبائه وأجداده ، فهو يتعبد فى الخلوة ، يخطب من شرفة قصره ، ويلقى أناشيده فى المعبد ، ويتجول فى عربته الملكية فى شوارع أخت

آتون ، بصحبة الملكة ، بلاحرس ، مخالطا جموع شعبه ، محطما الحواجز التقليدية بين العرش والناس ، داعيا في كل مكان إلى العبادة والحب ، والجميع من الوزراء حتى عمال النظافة يترنمون بنشيد الولاء للإله الواحد .

وذات صباح جاءني أحد معاوني وقال لي :

ــ ثمة همس بين الصفوة عن أنباء سوء!

باحت الأسرار بما أضمرت من فساد الموظفين ومعاناة الفلاحين وتفشى العصيان في الإمبراطورية . خرجت الحشرات من جحورها زاحفة وجرى الغدر مع مياه النيل . وأشفق قلبي مما عسى أن يتسلل إلى مولاى من الكدر ، غير أن الاحداث لم تزده إلا صلابة وإيمانا وثقة في النصر . ولم يهن تمسكه بالحب ، بل لعله قوى واشتد ، وكأن الظلام لم يدلهم إلا ليعده بالنور القريب . وفي تلك الأيام الكالحة تسلل مجرم من صنائع الكهنة إلى خلوته ليغتاله في غبش الظلام ، وكاد ينجح لولا أن عاجلته بسهم في صدره . وانتبه مولاى إلى ما أريد به فجعل يتفرس في وجه المجرم وهو يلفظ أنفاسه، ووجم طويلا ثم نظر نحوى قائلا في فتور:

- قمت بواجبك يامحو

فهتفت منفعلا:

ـــ إنى فداء لمولاي .

فسألني بنفس النبرة الفاترة:

ــ أما كان في مقدورك أن تقبض عليه حيا ؟

فقلت صادقا :

_ کلایامولای ..

فقال بأسى :

... دبر الأشرار مؤامرة لارتكاب جريمة يبغضها واهب الحياة فحيل بينهم وبينها ووقعنا نحن في الشرك .

فقلت بحرارة:

ــ بعض الشر لا يصلحه إلا السيف!

فقال ساخرا:

... هكذا يؤكدون ، ويكررون من قبل أن يوحد مينا القطرين ، فهل محقوا الشر ؟!

فأخذته نشوة مباغتة فهتف:

-- متى يرى البشر المشرق والمغرب في دفقة نور واحدة ؟!
انحدرنا من سيئ إلى أسوأ ، وتكشف الرجال عن أشباح خاوية ، وجرفتهم رياح الخريف أوراقا صفراء جافة لا إيمان لها ولا وفاء ، واعتصموا بالكذب لآخر لحظة فقرروا التخلي عنه باسم الدفاع عن حياته . وما أدرى إلا وحور محب يصدر لي أمرا بمغادرة المدينة على رأس جنودى . ولم يكن في مقدورى مناقشته ، وحتى توديع مولاى لم يسمح لي به . وذهبت إلى طيبة وبي غصة ندم لم تفارقني حتى اليوم ، وسرحت فيمن سرح من جنوده المخلصين فرجعت إلى قريتي كاسف البال إلى الأبد . وترامت إلينا نتف من أنباء مولاى السجين في قصره ، ثم أعلن خبر وفاته مريضا فلم يداخلني شك في اغتياله . كيف تلاشي الحلم الجميل بهذه السرعة ؟! كيف تخلي عنه الإله بعد أن سكب في أذنيه صوته المقدس الواعد ؟، كيف وكيف أيتها الدنيا التي لا معنى الذي ؟!

وسكت وهو من الحزن في غاية فاحترمت سكوته هنيهة، ثم سألته:

ــ ترى ما تصورك العام عنه ؟

فأجاب في حيرة :

_ إنه روح العذوبة والصفاء ولكنى لا أستطيع أن أقول عنه أكثر مما تقول الوقائع التي سردت ..

۔ ونفرتیتی ؟

... إنها الجمال والجلال.

فقلت بعد تردد :

_ ماأكثر مايقال عنها !

فقال بوضوح :

__ أقول لك كرئيس للشرطة أننى لم أسجل عنها حركة سوء واحدة ، رغم أننى قرأت في أعين حور محب وناخت وماى نظرات جشعة مضمخة بأخبث الشهوات ، وعلى مدى علمى أنها لم تشجع أحدا على تجاوز حدوده ..

_ لم انفصلت عنه في رأيك ؟

فأجاب في حيرة :

ـــ إنه لغز لم أستطع حله إلى الآن !

ــ يخيل إلى أنك كفرت بإله مولاك ؟

فأجاب بعبوس :

_ لم أعد أومن بإله ا

« ناخت »

سليل أسرة عريقة ، ربعة ، ذو وجه أبيض مشرب بحمرة ، رزين اكثر من أى إنسان ، فى الأربعين أو نحوها ، كان وزير إخناتون ، وهو يعيش اليوم فى مقاطعته بإقليم دكما فى وسط الدلتا . لم يشغل وظيفة فى الدولة الجديدة ولكنه يدعى من حين لآخر لاستطلاع رأيه فى المشكلات الكبرى . رحب بى منوها بالعلاقات القديمة التى تربط بين أسرتينا ثم مضى يدلى برأيه متجاوزا الأحداث التى باتت معروفة لدى وهو يقول :

-- دعنى أخبرك بأننى رجل غير سعيد ، لم أستطع أن أضطلع بمسئوليتى كما يجب ، فأفلت منى الملك ، وتمزقت تحت بصرى الإمبراطورية . لقد اعتزلت الحياة العامة ولكن الهموم لم تعتزل قلبى . وكلما ألح على الكدر ساءلت نفسى أى رجل كان مولاى إخناتون الذى وصف اليوم بالمارق ؟.

كنت من رفقاء صباه مثل حور محب وبك ، ورغم كل ما يمكن أن يقال عن ضعفه وأنوثته وغرابة منظره فقد نجح في حملنا على حبه ، والإعجاب بقوة إدراكه ونضجه المبكر . ولكن ثمة نقطة ضعف اكتشفتها فيه قبل الآخرين وهي أن شئون الذنيا الواقعية لم تكن تهمه ، وكانت تبعث في نفسه الملالة والسقم . كان يرمق بعين ساخرة حياة أبيه اليومية التي تكون النواة الصلبة التي ترتكز عليها تقاليد العرش المقدسة مثل الاستيقاظ في ساعة محددة ، والاستحمام والإفطار (م ٨ ــ العائش في الحقيقة)

والصلاة واستقبال المسئولين وزيارة المعبد ، وكان يغمغم : __ أي عبودية !

كان يعبث بالتقاليد عبث طفل مدلل لذته في التحدي وتحطيم الآنية الثمينة ، ومن ناحية أخرى كان يطمح إلى معرفة سر الكون ، والسيطرة على الحياة والموت . و تضاعف إصراره على ذلك بعد و فاة أخيه الأكبر تحتمس . لقد انكسر قلبه أمام الموت ولكنه صمم على أن يرد الضربة بلا هوادة . وكان ذا خيال وثاب ، وكان خياله من القوة بحيث وقع في النهاية أسيرا له وهو لا يدري . ونحن أيضا كان لنا خيال ، ولكنا كنا على وعي بأنه خيال . أما هو فكان خياله يتجسد له حقيقة واقعة . من أجل ذلك ظن به الجنون أو العته . كلا ، لم يكن مجنونا ولا معتوها ولكنه لم يكن طبيعيا أيضا . كان على حداثته مبعث قلق لوالديه وللكهنة ، ومصدر حيرة لنا نحن أصدقاءه المقربين . يشك في آمون سيد الآلهة ، ويعبد آتون ثم يسر إلينا بأهتدائه إلى الإله الواحد الذى لا إله غيره . لم أشك في صدقه ، كما لم أشك في خطئه . كان صادقا لأنه لم يكذب قط ، ولكنه لم يسمع صوت إلله ، وكان المتكلم قلبه هو . وما من بأس في أن يزعم ذلك كاهن من الكهنة ، أما أن يكون الزاعم وليا لعهد أمنحتب الثالث فالأمر يختلف . ولم يصمت ذلك الصوت الخفي ، ولكنه راح يبدع للناس رسالة في الحب والسلام والسرور ، ويضمر للآلهة والمعابد وإمبراطوريتنا الفناء . وإذا بالشاعر يصير ملكا ، وإذا بالحلم يتجاهل الحقيقة ويحل محلها فتختل الموازين وتقع المأساة . ودعانا عقب جلوسه على العرش وعرض علينا دينه الجديد!. كان من رأيي الرفض ، وقلت لحور محب

ــ قد يعدل عن غيه إذا وجد نفسه وحيدا .

فقال لي :

ـــ سيجد غيرنا ممن لاخلاق لهم ولاخبرة فيجرون البلاد إلى الخراب .

فسألته :

_ أليس من المحتمل أن يقع ذلك بأيدينا ؟

فابتسم ساخرا وقال:

ـــ إنه أضعف من أن يستهين برأينا !

وهز منكبيه وتمتم:

ــ إنه يملك الكلمات ونحن نملك القوة ..

من أجل ذلك أعلنت إيمانى بدينه بين يديه . واختارنى وزيرا فتلاشت مخاوفى أو كادت . وكنت ألقاه كل يوم سواء فى طببة أو فى أخت آتون ، فأعرض أمور الإدارة والمال والمياه والأمن فيلوذ بالصمت تاركا الرأى والتوجيه للملكة التى أثبتت جدارة فاقت كل تصور ، أما هو فلم يتحدث إلا عن إلهه ورسالته ، وما يتعلق بذلك من توجيهات وقرارات . وواجهت أول تحد عندما أراد أن يعلن موقفه من الآلهة ، وحذرته من العواقب وإذا به يقول لى كالمعاتب :

_ ياضعيف الإيمان!

ومضى بى إلى الشرفة فأطل على الجموع المحتشدة ، وكانت له قوة السحر فى نفوسهم ، فأعلن قراره بقوة مخيفة وارتفع هتاف الجماهير إلى السماء ، وشعرت بأننى أصبحت لاشىء ، وأن ذاك البناء المتهافت يتفجر عن قوة مجهولة لاقبل لنا بها . ورغم حكمة نفرتيتى

كانت تسلم له في رسالته وتتحمس لها كأنها هي صاحبة الرسالة . والحق أن ذلك أدهشني حتى قلت لنفسي :

....هذه المرأة إماأن تكون شريكته الروحية أو تكون أكبر ماكرة عرفتها البشرية ! وفي تقديري أنه مما أكد له النجاح أنه لم يتصد لمعارضته سواي . فحور محب لم يتكلم إلا عندما بلغت الأزمة ذروتها ، وأما آي المستشار فقد شجعه طيلة الوقت متظاهرا بالحماس والورع والتفاني في حب الإله الجديد . ودعني أصارحك بأنني أتهم ذلك الرجل بالمكر وسوء الطوية ، إنه رسم خطة ليثب إلى عرش مصر ، وإليك تصوري كاملا . لقد اختير معلما لولي العهد فوقف على نقاط ضعفه جميعا . هو الذي وجهه إلى ديانة آتون ، وهو الذي بث في روحه فكرة الإله الواحد وأنه صاحب رسالته . وهو الذي دبر زواجه من ابنته رغم علمه بعجزه ، وأقنعها بالتظاهر بالإيمان الجديد . بذلك صار حما الملك ومستشاره المعروف في مصر بالحكيم . وزين له مصادرة الألهة ليوقع بينه وبين الكهنة والشعب فينتهى الصراع بعزله أو قتله إن لم يمت قبل ذلك لضعفه الطبيعي . ولم تكن تخفي عنه الأسباب التي ترشحه للعرش ، فهو حمو الملك وهو الحكيم ، وهو أيضا طاعن في السن لا يبأس الطامعون في العرش من انتظار أجله ليحلوا محله . ولعله رسم أيضا أن يتزوج من ابنته نفرتيتي فيدعم شرعيته وتستمر هي ملكة لمصر . ورأيي هذا لا يستند إلى تصوري وحده ولكن لما وافاني به بعض العيون ، ولكن أفشل خطته ولاء الشعب للملك أولا ، ثم تولية الكهنة لتوت عنخ آمون عند ذروة الأزمة ، ولكنى أعتقد أنه مازال يجتر حلمه القديم .

ولم أستطع أن أبوح برأيي لأحد ، ولكنني ثابرت على تقديم نصحي للملك ، قلت له :

... لا شك أن إلهك هو الإله الحق ، ولكن دع الناس إلى آلهتهم ، شيد له في كل إقليم معبدا وسيكون له النصر الأخير ، ولكن جنب البلاد شر الفتن !

ولكن كان أسهل على أن أزحزح الهرم عن موقعه عن أن أزحزح إخناتون عن قراره ، ومازاد عن أن قال لي :

_ ياضعيف الإيمان!

وقمت بالمحاولة نفسها لإنقاذ البلاد من الفساد ، والإمبراطورية من الضياع ، قلت له :

ــ الدفاع عن النفس حق ولا يتناقض مع الحب والسلام .

فقال لى بحماسه العجيب:

- حتى الحيثيون أنفسهم سيخشعون لسحر الحب ، الحب أقوى من السيف والكبرياء !

ولما تراكمت سحب الظلام اجتمعت سرا بكاهن آمون وقائد الدفاع ماى ، وقلت لهما :

ـــ لا بد من الإقدام على عمل وإلا فقدنا الجدارة والشرف .

فنظرا إلى مستطلعين فقلت:

_ فليكف الكهنة عن إثارة القلاقل في الداخل ، وليزحف ماى بجيش الدفاع لإنقاذ الإمبراطورية .

فتسائل ماى :

ـــ أزحف بلاأمر من فرعون ؟

فقلت بهدوء:

ـــ بلي ..

فتساءل الكاهن وكان أقوى ثلاثتنا:

__ و بعد ؟

فقلت:

حينما يتم النصر لماى يطالب الملك بإطلاق حرية الأديان .

وإذا بالكاهن يقول لي :

_ خطة غير حكيمة فقد يتمرد قواد الجيش على ماى إذا أمرهم بالزحف دون أمر فرعوني ..

ثم قطب حتى احتنق الدم بوجهه وقال لي :

_ إنك تعمل لحساب مولاك يا نخت لا لحسابنا ، فلا شك أنه بلغك نجاحنا في بث دعوتنا في الأقاليم فقررت أن تحرمنا من جنو دنا الموالين لنا ..

تلقيت الطعنة في غضب وغادرتهما موقنا بأن أحدا لا يشغل باله إلا بمصلحته الذاتية ، وأن مصر ضائعة بين أوغاد ، وأن تبعة خرابها تقع على الجميع ما بين موالين للملك والمعارضين له لا على أخناتون وحده ، بل لعله أنقى المذنبين ضميرا وأصفاهم نية . لقد لعب به الدهاة ، ورسموا له خطة ماكرة ليحققوا في رحابه جشعهم ، ثم ليرثوا ملكه عقب السقوط الحتمى ، ولكنه صدق كذبتهم و آمن بها ، وتفجرت من إيمانه قوة لم يعمل أحد حسابها ، فاجتاحتهم فترة من الزمن ، وغزت القلوب بسحر عجيب ، حتى ارتطمت بصخرة الواقع الحادة القاسية ، فانجلت عن مأساة وخراب ودموع ، ثم لاذ

الانتهازيون الجشعون بقارب النجاة في آخر لحظة ، تاركين ضحيتهم الأعجوبة يغرق وحده وهو لا يصدق أن إلهه المزعوم قد تخلي عنه حقا . ومزق الجميع أقنعتهم ، وعلى رأسهم آى ونفرتيتي ، واختلفت مصائرهم ولكن لم ينل أحدهم جزاءه الحق ، باستثناء المارق المسكين ، ولدرجة ما نفرتيتي التي لم يقبل الكهنة توبتها الزائفة ، أما مصر فقد تحملت أخطاء الجميع وتعددت في جسدها الجراح ..

وصمت الوزير طويلا ثم تمتم في أسي عميق:

ــ هذه هي قصة الخداع والبراءة والحزن الأبدى ..

كان طبيب إخناتون الخاص ، وما زال يشغل نفس الوظيفة في قصر توت عنخ آمون ، في الستين من عمره ، نبيل المظهر ، وينبض به عرق نوبي ، وقد زرته في قصره الأنيق في وسط طيبة . وجدته هادئ الطبع ، خافت الصوت ، جم النشاط متأنقا في ملبسه . مضى يتكلم في استسلام لتيار الذكريات ، قائلا :

مهما قيل عن إخناتون الذى يعرف اليوم بالمارق فإن ذكراه تدفئ القلب بالحب ، وتتحدى الذاكرة بعجائبها ، هل حقا عاش ذلك الرجل بيننا ؟.. هل حقا كرس حياته للحب ؟. وهل حقا خلف وراءه هذه العواصف من الحقد والكراهية ؟. وكلما تذكرت معه القلق الذى أثاره فى قلوب القريبين منه والبعيدين منذ صباه المبكر . كانت الملكة العظمى تيى تسألنى :

_ ما سر ضعفه يا بنتو ؟

شد ما حيرنى ذلك السؤال . لم يكن به مرض ، ولكنه كان نحيلا هزيلا شاحب اللون ، لا يمكن أن يصمد لمرض أو حادث ، بخلاف شقيقه تحتمس القوى الجميل ، ولم يحب الألعاب الرياضية ولا الطعام الجيد . وكنت أصلى إلى تحوت إله العلم وأقول له « تعال إلى أرشدنى فإنى خادم فى دارك » . ولم ينفع معه عصير الأعشاب باركة برقية إيزيس ولا تمائم تحوت كاتب رسائل الآلهة . وبلغ لخوف غايته عندما مسه المرض فى الخماسين ، وجر معه أخاه

تحتمس فرقدا في حجرة واحدة . وقالت لي الملكة تيي :

- بهما إمساك ، وانظر إلى صفرة وجهيهما ..

ففحصتهماو قلت:

... بالقلب حرارة وفى البطن انتفاخ ، لابد من شراب يفرغ الأمعاء ، ثم انقعوا جعة حلوة مع دقيق جاف لمدة ليلة واحدة ليأكلا منه أربعة أيام .

قبل أن تنتهى الأيام مات تحتمس القوى ، ونجا الضعيف من كل سوء . ودار الصبى في جميع أنحاء القصر يبحث عن شقيقه وقلبه يتقطع من الحزن . وكلما رآني رماني بنظرة احتجاج ويقول :

ــ تركت أخى للموت!

ونظر إلى أبيه وقال معاتبا :

ــ عندما أصير فرعون سأقتل الموت !

وسألنى يوما بحرارة :

ـــ ألا يمكن أن يرجع تحتمس يوما واحدا ؟!

فقلت له:

ــــ صل للآلهة التي أنقذت روحك ، أما الموت فلارجعة منه .

وكلنا سنموت .. فسألني بحدة :

_ لماذا ؟

فقلت له ملاطفا:

ــ ردد الأغنية التي كنت تترنم بها مع أخيك الراحل:

أولئك الذين يتحدث الناس بكلامهم أين ديارهم الآن ؟ كأنها لم تكن افرح حتى تنسى قلبك فإن أوزوريس لايسمع العويل ولاينقذ الصراخ إنسانا من عالم الأموات.

وصاحبه الحزن زمنا طويلا حتى خيل إلى أنه فاق أمه في حزنه على أخيه . ومرة وأنا أتعهده بالرعاية الطبية سألني :

_ لم هذا الجهد كله طالما أننا كلنا سنموت ؟

فابتسمت وواصلت عملي فرجع يسأل:

ـــ لم تبتسم كأنك لن تموت ؟

فقلت له متهربا من مطاردته:

_ سل معلمك آى .

فقال باستهانة:

ـــ إنه لا يعرف أكثر مما تعرف .

وكان نضبج حديثه مع هزاله وحداثته مما يهز النفس من أعماقها . وقد تابعت مغامراته الروحية بنظر ثاقب مسربل بالإعجاب الذى لاحد له ، وقلت لنفسى إن هذا الغلام ذو موهبة غامضة خارقة تستعصى على الإدراك ، مثير للقلاقل ، متحدية للقوى المتربصة به ، فماذا يخبئ له الغيب إذا جلس يوما على عرش أجداده ؟. وكان نشاطه معضعفه مما يبعث على الذهول . كان ينام قليلا ، يتعبد كثيرا كأنه كاهن ، ويقرأ كثيرا كأنه حكيم ، ولا يمل من طرح الأسئلة والنقاش . وضاق به

الملك أبوه فقال بمرارة:

ــ أثبت أنه جدير بأي كرسي إلاكرسي العرش إ

ويوما الحظت أنه يسترق من أبيه نظرة لم أرتح لها ، فقلت له :

_ إنك تدرك كثيرا من الأشياء ولكنك لم تدرك عظمة أبيك بعد . فقال بعصبية :

ــ ساءني منظره وهو يلتهم الطعام .

كان ينفر من أصحاب الشهوات المسيطرة . وكنت أتصور أن سلامة الجسم هي أساس لسلامة الروح ، فأثبت لي أن العكس صحيح أيضا ، وأن قوة الروح قد تمد الجسم الضعيف بقوة تفوق إمكاناته . ولا أنسى قوله لي مداعبا :

ـــ إنك تهتم بالجسم كأنه كل شيء بينا القوة الحقيقية تكمن في الروح ، هي الخالدة أما الجسم فهو بناء مهلهل قذر سيئ الأخلاق سرعان ما يتقوض عقب قرصة حشرة !

وهتف وكأنه نسى وجودي تماما:

ـــــ لاأدرى ماذا أريد ولكنى ملىء بالرغبة ، ألا ما أحـزن الليــل الطويل .

وكان يقبع فى الظلمة منتظرا الشروق ثم يتلقى النور فيتألق بالفرح، حتى تلقى يوما مع دفقة النور صوت الإله الواحد، وعصف الرعب بقلب طيبة المطمئن. وقلت لنفسى:

__ إنه ليس نسمة من نسائم الربيع ولكنه عاصفة من عواصف . الشتاء !

واستدعاني الملك والملكة ، وسألتني تيي :

ـــ مامعنى هذا الصوت يابنتو ؟

فقلت بحبرة:

... لعل آي الحكيم أقدر على الإجابة مني يامولاتي .

فقال الملك بضجر:

_ إنها تسألك كطبيب .

فقلت بإخلاص:

_ لا أعرف عقلا أنضج من عقله يا مولاي .

فسألنى بحدة:

__ أهو يعبث بنا ؟

فقلت بإخلاص:

ـــ إنه صادق وأمين .

_ ببدو أنك لا تملك تفسيرا لذلك .

_ هذا حق يامولاى .

فسألنى مقطبا:

_ أأنت مؤمن بسلامة عقله ؟

ــ أجل يامولاي .

_ ألا يحتمل أن يصدر صوت عن قوة شريرة ؟

فقلت بصدق:

ــ العبرة بما يدعو إليه .

فهتف غاضبا:

ــــ العبرة بما سيرسل علينا من زوابع .

و جاء زواجه من نفرتيتي مبشرا بآمال كثيرة فأمل والداه كما أملنا نحن أن الزواج سيعقل من اندفاعه ويرده إلى الاتزان والرؤية العملية . ولكن الزوجة كانت كاهنة فانطلقا في طريقهما حتى نهايته لا توقفهما قوة فوق الأرض . ومات أمنحتب الثالث وخلفه صاحب الرسالة ، وشعر الجميع بدنو المعركة وتوترت الأعصاب لأقصى حد . ودعاني الملك فيمن دعا من رجاله وخيرني بين الإيمان بدينه وبين ممارستي لحياتي كيفما أشاء بعيدا عن بلاطه ، ولم أتردد في الاختيار فأعلنت بين يديه إيماني بالإله الواحد . لم يكن في وسعى الانفصال عنه أو الاستهانة بجاذبيته الفائقة ، كما أنني أحببت إلهه واعتبرته فيما بيني وبين نفسي كبير الآلهة مع حفاظي على إيماني القديم بسائر الآلهة ، خاصة تحوت كبير الآلهة مع حفاظي على إيماني القديم بسائر الآلهة ، وتعاقبت الأحداث كما عرفت ، ومضى الرجال يشيدون للإله الجديد مدينته ، وانتقلنا إليها في جمع زاخر ونحن نردد الأناشيد ، واستخف الفرح الملك فهتف ووجهه يطفح بالبشر :

ـــها نحن ضيوفك يا إللهي في مدينتك الطاهرة التي لم تلوث بعبادة إلله زائف ..

و استقبلناعهدا سعيدا تمنينا معه الخلود على الأرض ، وجعلت أقارن كل صباح بين ما يلقى علينا في المعبد وبين طقوس الآلهة القديمة وأشعار كتاب الموتى فلم يخامرنى شك في أن دفقات من نور صافى تملأ أرواحنا بخمر إلهية صافية .

وعرض لنا أول عارض من كدر بوفاة الأميرة المحبوبة ميكيتاتون . وقد توسل إليّ قائلا :

ـــ ىنتو ، أنقذ محبوبة قلبي .

ولما لفظت الجميلة أنفاسها أجهش في البكاء كما نفرتيتي وأكتر ، وعاتب إلهه عتابا تجاوز حد الصبر ، حتى قال له مرى رع الكاهن الأكبر :

_ لا تغضب الإلله بدموعك يامولاى .

فانفجر مولولا ، من الحزن أو الندم أو كليهما معا . وهتفت نفرتيتي :

ــ ما هو إلا سحر كهنة آمون !

وكانت تردد ذلك القول كلما أنجبت بنتا وضاعت فرصة جديدة لإنجاب ولى العهد . وكان هو يشاركها الألم ، ويحزن لحزنها ، فسألنى مرة :

ــ أليس لديك من نصيحة تجدى لإنجاب ذكر ؟

فقلت له:

ــ أبذل جهدي يامولاي .

فسألني :

ــ أتؤمن بسحر الكهنة ؟

فقلت كارها:

ـــ لا يجوز الاستهانة به .

فتفكر مليا ثم قال لي واجما :

- لينتصرن الإله الواحد ، ويملأن الكون بأفراحه ، ولكننا نحن البشر لن نخلو من أحزاننا الصغيرة .

لذلك كان سرعان ما يعبر جسر الحزن لينغمس في نور الحقيقة . ولما تتابعت كربات الأزمات في الداخل والخارج ، أرسل إلى كاهن آمون الأكبر رسولا سريا ، ذكرني بعهد طلبي العلم في معبد آمون ، ثم طرح على هذا السؤال :

__ أيمكن الركون إليك لإنقاذ الوطن من الخراب الذي يتهدده ؟ فأدركت من توى أنه يطالبني كطبيب باغتيال الملك ، ولذلك قلت له بنبرة حاسمة :

_ مهنتي تأبي الخيانة .

اجتمعت بمحو رئيس الشرطة وطلبت منه مزيدا من مراقبة الطهاة ، هذا والأمور تمضي من سيء إلى اسوأ .

وسكت الطبيب بنتو وقتا ينشد شيئا من الراحة في خضم الذكريات المرهقة فتذكرت ما سمعت من أقوال متضاربة عن حياة إخناتون الجنسية ، ورححت ألا يعرض الرجل لها ، فسألته عنها مدفوعا بحب استطلاع لا يقاوم . وعند ذاك قال :

ـــ كَان جسمه يجمع بين خواص الذكر والأنثى ، كذلك قسمات وجهه ، ولكنه كان رجلا قادرا على الحب والإنجاب .

ار تعشت شفتای بسؤال مضطرم ، وترددت طویلا ، ثم استجمعت شجاعتی و سألته :

ـــ هل ترامي إليك ما قيل عن علاقته بأمه ؟

فتجهم وجه وأجاب :

_ و سمعت مثلما سمعت أنت ، ولكني أعتقد أنه محض افتراء! و تريث و وجهه يزداد تجهما ثم قال:

_المسألة أنه كان إنسانا فاق سموه أى إنسان ، يبشر بمملكة إللهية لا تتوافق مع طبيعة البشر ، فأشعر كل فرد بتفاهته ، وتحداه باستفزاز لا قبل له به ، فانهالوا عليه بالغضب البائس والحقد الحيواني . .

فسألته متشجعا بسماحته:

ـــ وما رأيك في نفرتيتي ؟

_ ملكة عظمى بكل جدارة .

_ وكيف تفسر انفصالها عنه ؟

ـــ لدى تفسير واحد ، هى أنها لم تصمـد للضربـاب المنهالـة فأصيبت بانهيار ، فهربت بمرضها مغلوبة على أمرها .

ثم واصل حديثه قائلا:

_ وبلغت المأساة ختامها الأسود بصدور قرار التخلى عنه ، وقد استأذنت حور محب في السماح لي بالبقاء إلى جانبه بوصفى طبيبه الخاص فأخبرني بأن الكهنة قرروا إرسال طبيب من لدنهم 1. ولكنه سمح لي بفحصه إذا شئت قبل الرحيل . وذهبت من فورى إلى القصر الذي لم يبق به إلا نفر من العبيد ، ومجموعة للحراسة اختارها أعداؤه . وجدته في خلوته وحيدا وكان يصلى ، مغردا بصوته الحنون :

إنك جميسل .. إنك عظيهم بك يفسرح قلب الإنسان وتخضر الأشجار والأعشاب وترفسنرف الطيسسور وتقفسن الحمسلان خلقت ملايسن الأشبال .

ولما فرغ من صلاته نظر نحوى باسما فغضضت بصرى دامع العينين . سألنى :

_ كيف تيسر لك أن تجيء يا بنتو ؟

فقلت بصوت متهدج:

__ سمح لى بأن أفحص مولاى قبل الرحيل.

فقال في هدوء:

ـــ إنى في خير حال يا بنتو .

فقلت بأسى:

ــ جميع الأوفياء أكرهوا على الذهاب .

فقال باسما:

ـــ أعرف من ذهب بالختياره ومن ذهب على رغمه .

فانحنيت حتى لثمت يده وأنا أقول :

ـــ يعز عليّ أن تبقى وحدك .

فقال بهدوء:

_ لست وحدى يا ضعيف الإيمان .

ثم لقوة منعشة:

(م ٩ ــ العائش في الحقيقة)

ـــ يتصورون أن الهزيمة حلت بي وبإلهي ، ولكن إلهي لا يخون ولا يقبل الهزيمة .

وغادرته متورم العينين من البكاء وأنا على يقين من أن الطبيب المنتدب ليحل محلى سيزهق باغتياله أنبل روح حلت بجسد بشرى . وغصت في وحدة لم أخرج من وحشتها حتى الساعة ..

« نفرتیتی »

سمح لي بدخول أخت آتون بإذن خاص من القائد حور محب . مراكز الحراسة المتقاربة تمتد بطول شاطئها على النيل. اخترقت نصف المدينة الشمالي مابين المرسى وحتى قصر الملكة السجينة ، يتقدمني جندي من جنود الحراسة . وطيلة مسيرتي تلقيت من الذكريات تيارا مفعما بالزبد واللآلئ ، متلاطما بين العبر والدهشة ، تحلق فوقه غربان الفناء . اختفت أرض الشوارع العملاقة تحت ركام الأتربة ونثار أوراق الأشجار الجافة . وخليط من الأخشاب التي نزعتها العواصف من النوافذ والأبواب . البوابات الكبيرة مغلقة كالجفون المسدلة على أعين باكية ، وجفت الحدائق فتلاشت خضرتها وألوانها ، ولم يبق منها إلا جذوع خشنة ضامرة كالجثث المحنطة وجواسق متداعية وأسوار منهارة ، يخيم فوقها صمت ثقيل مكتوم الزفرات ، وفي الوسط مجموعة هائلة من الأنقاض هي ما تخلف عن معبد الإلله الواحد المتهدم الذي تجاوبت في أركانه أعذب الألحان المقدسة . اخترقت الكآبة والوحشة والخوف تطل من أعينها نظرات الحقد والانتقام ، ويطبعها بطابعه الموت بملامحه الرهيبة الأبدية . كان الوقت عصرا و نحن نقبل على قصر الملكة في أقصى السمال ، وقد تبدى شامخا بأبعاده ، مضيئا بحديقته الغناء ، حزينا بنو افذه المغلقة عدا نافذة واحدة خفق لمرآها قلبي. وكان الخريف يتوسط عمره، والفيضان محتفظا بفيض من فتوته ، والماء ضاربًا إلى الاحمرار ·

الداكن ، فامتلأت منه بحيرة القصر الصناعية . خفق قلبي وأنا أقترب من ختام رحلتي ، وكأنني لم أقم بمغامرتي المثيرة إلا من أجل لقاء هذه السيدة الوحيدة .

ووجدتنى فى حجرة صغيرة أنيقة ، زخرفت جدرانها بالكلمات المقدسة ، فى صدرها كرسى من الآبنوس يقوم على أربعة أسود من الذهب ، وبين يديه يقع كرسى من الآبنوس ذو مقبضين من الذهب الخالص . وجاد الزمان بالرؤية فرأيت السيدة العجيبة مقبلة فى ثوب أبيض فضفاض ، رشيقة جميلة عظيمة ، لا ينحنى ظهرها تحت وطأة أربعين عاما مثقلة بالمحن وسوء المآل . جلست وأشارت إلى بالجلوس وطالعتنى بعينين ساجيتين تنداح فى جمالهما الملالة . بدأت بالثناء على أبى ثم سألتنى بمرارة :

ــ كيف وجدت مدينة النور ؟

فغضضت بصرى المفتون بجمالها ولذت بالصمت ، فانشأت تقول :

سلقد سمعت الكثير عنه وعنى فاستمع الآن إلى صوت الحقيقة. . شببت و ترعرعت مليئة بحب الحقيقة والدنيا منتفعة بحكمة أبى آى . لم أشعر بفقد أمى في عامى الأول لما وجدته عند تى من حنان قلب كبير فكانت لى أما لازوجة أب ، ووهبتنى طفولة سعيدة . ولم تتبدل عواطفها بمولد أختى موت نجمت بفضل حكمتها ، ونشأنا أختين متحابتين ، وإن جنى على تفوقى بعد ذلك ما يجنى من إثارة للغيرة والحسد ، وإن لم يستفحل ذلك بيننا إلا فيما بعد . وظلت تى على حنانها لا تفرق بيننا ، على الأقل في الظاهر ، فشكرت لها ذلك ،

وكافأتها عليه في حينه فاخترتها مربية للملكة وأنزلتها بمنزلة الأميرات ، وذات بوم جاءنا أبي برجل مبارك ممن يقرءون الغيب ، فنظر في طالع الأختين ، وقال :

__ هاتان البنتان ستجلسان على عرش مصر .

فدهش أبي وسأله:

__ الاثنتان ؟

فأجابه بيقين على مسمع منا :

__ الاثنتان .

وتحبرنا طويلا بين الإيمان بالرجل وغرابة نبوءته ، حتى قلت ضاحكة :

_ قد تجلس إحدانا ثم تخلفها الأخرى .

ولم ترتح تي إلى ما يشير إليه قولي من معني فقالت بحزم :

ــ لننس هده النبوءة وندع المصير للألهة!

وصممنا على نسيانها ولكنها كانت تلوح فى أفق الخيال بين الحين والحين ، حتى جاءت الحوادث ففجرتها تفجيرا . وسمعت عن إخناتون أول ما سمعت عن طريق أبى بعد أن اختير معلما له . كان ينوه فى مجالسنا العائلية بعقله ونضجه المبكر ; ومرة قال عنه :

_ يا له من شخص مثير ، إنه ينتقد الآلهة والكهنة ، ولم يعد يؤمن إلا بآتون ! وبخلاف أمى وأختى و جدت صدى لما يقول في نفسى ، إذ كنت أعشن آتون أيضا ، وأعجب بمجاله الشامل للسماء والأرض على حبن تقبع الآلهة في ظلام المعابد . لذلك قلت ببراءة :

... معه الحق كل الحق يا أبي .

فأسخط قولي أمي وأختى أما أبي فقال باسما :

نحن نعدك لتكوني زوجة لأكاهنة .

لكننى خلقت لأكون كاهنة مع حبى للأمومة والمجد الدنيوى!. ولما نقل إلينا أبى أول نبأ عن الإله الجديد ، الواحد الذى لا إله غيره ، زلزلنا بعنف ، وثارت العواطف لأقصى حد ، وتعرض ولى العهد لقارص الكلمات . وسألته أمى :

_ ما رأى الملك والملكة ؟

فقال آی واجما:

ــ ثمة أزمة في القصر لم يشهد لها مثيلا من قبل.

وقالت أمي بإشفاق:

ـــ أخشى أن يوجه إليك لوم بوصفك معلمه .

فقال بأسى:

_لكنهما أدرى بابنهما ، وبأنه لا ينساق وراء أحد مهما جل شأنه . فقالت موت نجمت :

ــ إنه مجنون ، وسيفقد عرشه ، أليس للعرش وريث آخر ؟ فقال أبي :

ــ ليس له سوى أخت كبرى عليلة ..

وفي أثناء الحوار كنت أموج بعواطف عنيفة حتى خفت أن يغمَى على . تمثل لى ولى العهد أسطورة ذات جاذبية لا تقاوم . لكنني ترددت عن اتخاذ قرار ووقعت في العذاب . وذات مساء سمعت خفية أبي و هو علو وحده نشيدا من أناشيد الأمير :

إنك جميل إنك عظيم بك يفصرح قلب الإنسان وتخضر الأشجار والأعشاب وترفصرف الطيمور وتقفصر الحمسلان

فحفظته وأنا في نشوة مسكرة، ورحت أردده وقلبي يتفتح له ويمتلئ برحيقه . انجذبت إليه انجذاب الفراشة إلى النور . وتقرر مصيرى بأن أكون الفراشة التي تنجذب إلى النور حتى يهلكها . وغزاني الإيمان بقوة ولطف في موكب مغرد بالأهازيج ، واهبا الطمأنينة والسلام . وهمست :

_ باإللهي الواحد ، إني مؤمنة بك ، إلى الأبد .

وأظهرت نفسى لأبى وأخذت أردد النشيد فرمقنى مقطبا وهـو بتساءل :

__ تسترقين السمع ؟

فتجاوزت عتابه وسألته :

_ مارأيك ياأبي في الصوت الذي سمعه ؟

فأجاب ببرود :

_ لاأدرى .

فسألته بجرأة:

_ أيحتمل أن يكون كاذبا ؟

فصمت ملياً ثم قال:

_ إنه لا يكذب أبدا .

ـــ إذن فهو صوت حقيقي ا

فبدا مترددا ومشفقا ولكنه قال:

ــ ربما كان حلما ماسمع!

فقلت بنبرة تسليم واعتراف:

ـــ أبي ، إني مؤمنة بالإله الواحد !

فتغير لونه وهتف :

_ حذار يا نفرتيتي ، احتفظى بسرك في قلبك حتى أقتلعه منه ! ودعينا كما تعلم للمشاركة في حفل عيد الجلوس . وقالت لناتي :

_ يجب أن يراكما أنبل شباب مصر وأنتما في أجمل زينة . غير أنني كنت متلهفة على رؤية شخص واحد ، ذلك الذي هداني

إلى نور الحقيقة . وفي البهو العظيم رأيت أفرادا قدر لى أن أخوض معهم بحر الحياة بحلوه ومره مثل حور محب وناخت وبك وماى وغيرهم ، ولكن قلبي لم ير في الواقع إلا مولاى . وأعترف لك بأن منظره صدمني صدمة غير متوقعة . تصورته تمثالا من نور ، ولكني وجدته نحيلا متهافتا مخيبا للأحلام . وأفقت من هزيمتي العابرة بسرعة ، تجاوزت المنظر المثير للرثاء إلى الروح الكامنة فيه ، التي اختصها الإله بحبه ورسالته ، وأعلنت لها فيما بيني وبين نفسي الولاء إلى الأبد . كان يجلس إلى يمين أبيه يتابع الرقص والغناء بعين فاترة . ولم تتحول عنه عيناى ، ولعل كثيرين لاحظوا ذلك وفسروه بحسب أهوائهم ، ثم عيناى ، ولعل كثيرين لاحظوا ذلك وفسروه بحسب أهوائهم ، ثم أعادوا تفسيره على ضوء الحوادث التالية . ولن أنسي ما قالته لى موت نجمت فيما بعد وهي تعاني لدغة الغيرة :

_ لقد حددت لك هدفا و نلته!

و تمنيت أن ينظر نحوى . وقد فعل . ألقى إلينا نظرة عابرة فالتقت عينانا لأول مرة . وهم بأن يمضى بنظرته الملولة ولكنه توقف فيما يشبه الدهشة . وكأنه يهر ، أو تساءل عمن تكون تلك الفتاة التي تحدق فيه بنهم . وحانت منى التفاته إلى الملكة العظمى تيى فوجدتها تنظر نحوى كذلك فاضطرب فؤادى أيما اضطراب . وحلقت أحلامى في آفاق بعيدة ولكنها لم تقترب في هيمانها من الواقع الذي جاءت به الأحداث . ورجعنا إلى قصرنا وصدورنا تجيش بآمال غامضة ، وموت نجمت غارقة في كآبتها . ولما خلت إلى في غرفتي قالت بانفعال :

_ توكد ظني!

فسألتها عما تعنى فقالت:

_ إنه مريض ومجنون !

فعرفت بالبداهة من تعنى فقلت:

_ لقد رأيت مظهره ولكنك لم تخبري قلبه .

وقال لنا أبي في اليوم التالي:

ــ الملكة تيي دعت نفرتيتي لمقابلتها .

وهز الخبر الأسرة هزة عنيفة ، وتبادلنا نظرات متسائلة . أما أبى فقال :

ـــ لا شك أن وراء ذلك شيئا من الرضا أو الإعجاب ..

وقالت تى بمباهاة :

_ أتنبأ بأنها ستضمك إلى حاشيتها الخاصة .

وذهبت برفقة أبى . وقادونى إلى استراحة الملكة المطلة على الحديقة الداخلية . سجدت بين يديها ، ثم أذنت لى بالجلوس على الحديقة) (العائش في الحقيقة)

أربكة إلى بمبل مجلسها . وجعلت تتفحصني غبر عابئة بحساسيتي ، نم سألسي :

_ اسمك نفرتيتي ؟

فأحسب بإحناءة من رأسي فقالت بلطف:

_ اسم على مسمى!

فشعرت بالفرح يشتعل في وجنني .

_ ما عمرك ؟

_ ستة عشر عاما .

_ تبديل أنضج من ذلك!

تم فبما يشبه الدعابة:

_ لمادا دعوتك في ظنك ؟

فألهمت أن أجيب:

_ لحنير هو فوق ماأستحق.

فابتسمت قائلة:

_ إحابة حسنة ، ماذا حصلت من العلم ؟

ـــ القراءة والكتابة والحساب والشعر والتاريخ والدين بالإضافة إلى الثقافة المنزلية .

ـــ ومارأيك في مصر ؟

_ سيدة الدنيا وملكها ملك الملوك.

وباهتمام سألت :

ب من إلهك المفضل ؟

فقلت مضطرة إلى إخفاء الحقيقة:

- ـــ آتون يامولاتي .
 - _ و آمون ؟
- _ هو مشيد الإمبراطورية أما آتون فهو الذي يطوف بها كل يوم! _ لا سلطان على ما ينبض به القلب و لكن يجب الإقرار بأن آمو ل هو كبير الآلهة .
 - فقلت بنسليم:
 - ــ هو كذلك يامولاتي .
 - بصراحة هل ذاق قلبك الحب ؟
 - فقلت دون تردد:
 - ـــ كلا يامولاتي .
 - _ ألم يتقدم أحد لخطبتك ؟
 - ــ كثيرون ولكن أبي لم يجد في أيهم الكفاءة .
 - وتفرست في وجهي مليا ثم سألتني :
- ... ما شعورك بصراحة عما يقال عن انحراف ولى العهد عن آمون ؟ ولأول مرة تجمد لساني فلم أنبس فقالت بنبرة ملكة :
 - ـــ أجيبيني بصراحة!
 - فأسعمني دهائبي فقلت :
- ... مهما بكن من أمر قلبه فيجب المحافظة على التقاليد المرعية بين العرش و الكهنة .
 - فابتسمت في ارتياح وقالت:
 - __ إجابة حسنة .
 - ثم اعتدلت فيما يتبه الدلال وسألت:

- حدتینی عن فتی أحلامك ، كیف تودین أن یكون ؟
 فتریثت فی ارتباك ثم تمتمت :
 - ــ أن تكون له قوة المحارب وروح الكاهن .
 - فقالت ضاحكة:
 - ــ إنك طموحة جدا ، من تفضلين إذا خيرت ؟
 - ـــ أفضل صاحب الروح .
 - _ حقا ؟
 - _ أجل يامولاتي .
 - _ لست كغيرك من السات .
 - ــ لادنيا عندي بلادين .
 - ــ وهل دين بلادنيا ؟
 - فتراجعت قائلة:
 - _ ولا دين بلا دنيا .
- وصمتت طويلا وأنا أكتم انفعالاتي المتصاعدة ، ثم سألتني :
 - ــ أرأيت ولى العهد ؟
 - في حفل عيد الجلوس يا مولاتي .
 - فسألت بصوت غريب:
 - _ و كيف ترينه ؟
 - _ إنه يتفرد بقوة خفية تميزه عن سائر الشباب ..
 - ففاحأتني متسائلة:
 - ـــ أعنى كزوج ؟

وخرست من هول المفاجأة حتى كررت السؤال فقلت بصوت تهدح :

_ لا تسعفني الكلمات يامولاتي .

_ ألم يساورك حلم يوما بأن تصيري ملكة ؟

_ أحلامي جزء من قلبي المتواضع .

ـــ ألا يفتنك العرش ؟

ـــ إنه في سماء لا ترتفع إليها أحلامي .

فصمتت قليلا تم قالت:

ــ اخترتك زوجة لابني ولي العهد .

فأغمصت عيني من شدة التأثر ، ثم قلت عندما استرددت قدرتي : __ و لكنه لا يعرفي و لا بهتم بي .

فقالت باعتزاز:

ــ ولكنه برضخ لمشيئتي عن حب راسخ ..

ثم مواصلة الحديث ىجلال :

__ يهمنى فى المقام الأول أن أجد له شريكة مناسبة ، ولما رأيتك ألهمنى حدسى بأنك الشريكة المطلوبة ، وإنى أومن بالحدس إيمانى بالعقل .

فأخر سنى التأثر الشديد عن التفوه بأى كلمة واستمرت هى تقول: __ ولكن الملكة خلقت للواجب قبل كل شيء ، ما رأيك في دلك ؟ __ أرجو أن أكون كما تودين يا مولاتي .

فقالت بصوت نافذ:

ــ عديني بالتعاون معي دون قيد أو شرط .

فقلت وأنا لاأقدر مسئولية قولي :

انى أعدك بذلك .

_ وأنا مطمئنة إلى شرف كلمتك .

كان الامتنان يشلني عن النفكير ، ولكن ما إن غادرت محضرها حتى شعرت بأنني أرسف في أغلالها ، وبأنها قوه لا يمكن الاستهانة بها ، وبأنها رقيب يرصدني من الداخل والخارج معا . وتذكرت ولى العهد فأيقنت من أن حلاله مهما جل فإنه لن يسوغه لي كزوج ، وأبني سأدفع ثمن المجد غاليا . و ذهلت الأسرة للخبر و ثملت به . أجل يمكن تصور أثره في أعماق قلب موت نجمت ، ويمكن تصور مشاركة تي لابنتها في عواطفها الخفية ، ولكن الحظ تدفق تلك المرة كالسيل ليغمر الجميع بفيضه وإن تفاوتت الدرجات . وإن يكن وعدني بالعرش فقد رفعهم إلى مقام الأسرة المالكة . من أجل ذلك أقبلوا على بسدون إلى القبلات وأطيب الدعوات . وتذكرت النبوءة وكيف تحققت بمعجزة فهل تتحقق أيضا لموت نجمت ؟. وساورني قلق . ولعل موت نجمت غلى طرد المخاوف ، ودعاني أبي إلى حجرته وقال لي بحنان :

_ اليوم تسعد أمك في قبرها .

فقلت بأسى:

_ لعلها _

ا فسألنى باسما .

، ــ کيف تشعرين ؟

فأجبث بصدق .

ــ الحقيقة تفوق أي خيال .

ــ لا يستطيع الحظ أن يهب فرصة للسعادة أقوى من ذلك .

فتساءلت :

_ هل أضمن السعادة حقا ياأبي ؟

فقال بحنان:

_ العرش يهب المجد أما السعادة فرهن بحكمة القلب .

فقلت بتأثر شديد:

_ ماأصدقك ياأبي .

فقال بعطف:

ــ سأصلى من أجل نجاحك وسعادتك .

وتمن مراسيم الزواج بسرعة غير عادية . واحتفل به في القصر احتفالا يليق بعظمة الملك أمنحتب الثالت وولعه بمتع الحياة . ومضت بي تي إلى الحجرة المذهبة ، وهمست في أذنى بكلماتها المفيدة ، وأجلستني على السرير الذهبي في ثوب شفاف يتجلى تحته جسمى العارى . ولاح في الباب ولى العهد والمشاعل في الأركان تزهر . نزع شملته عن وزرة شفافة وأقبل نحوى في خفة يطل من عينيه الشغف العذب . أوقفني فوق السرير وضم ساقى إلى صدره وهمس في أذنى :

وكان ينعم روحي بنوره أما جسدى فقد تقلص وانكمش أمام منظره الغريب . وراح يقول بصراحة عجيبة :

ـــ أحببتك في عيد الجلوس ، هرولت إلى أمى وصارحتها برغبتي في الزواج منك .

وضحك بسرور ثم واصل حديثه :

ــ أنكرت على رغبتي في الزواج من فتاة لا يجري في عروقها الدم الملكي فقلت لها « وأنت كذلك ياأمي » ، فتظاهرت بالغضب ، ولكنها استدعتك إلى مقابلتها ، ثم زفت إلىّ موافقتها ..

و تذكرت ما ادعت من أنها صاحبة الفكرة و داريت ابتسامة . و كان على أن أتكلم ، وأن أقول قولا صادقا ، فقلت :

- لقد آمنت بإلهك وبك من قبل أن أراك .

فهتف بحبور:

_ على لسان آي أليس كذلك ؟، إنك أول من آمن يانفرتيتي .

فقلت وأنا أدفع عن نفسي اللحظة الحرجة ما استطعت : ــ سأكون أول من يترنم بنشيد الإله في معبده .

_ أعدك بذلك .

ثم لثم شفتي وهمس:

ــ ولكن عليك أن تنجبي وريثا لعرش الإله !

وتلاشت مشاعري القدسية فلم يبق محلها سوى الحياء والضيق. ومضت الحياة بنا كزوجين ومؤمنين . أما عن حياتي الروحية فقد تلقيت منه مددا لا يفني أترع قلبي بالنور ، حتى توقعت أن يكلمني الإله كما يكلمه ، وأن يكرم نصف رمزه بما يكرم به نصفه الآخر . أما جسمي فكان يتجلد في كآبة وصمت . وحلت به الثمرة فتوعكت صحتى وتغير لوني ، وعبث القادم بي ، عبث برشاقة جسمي الجميل . وكان مولاي يعيش في الحقيقة ويكرس ذاته للحقيقة ، ويتحدى كافة القوى من أجل الحقيقة ، ولا يمقت رذيلة كما يمقت الكذب والكاذبين ، فساءلت نفسى فى قلق كيف أجيبه لو خطر له يوما أن يسألنى « أتحبيننى يا نفرتينى » . لن أجد الشجاعة للكذب عليه . وفضلا عن ذلك فقد تعلمت منه أن أحب الحقيقة وأن أكره الكذب . وأعددت إجابة على سؤاله المحتمل ، وهى أن أقول له :

ــ سيجيء الحب في وقته فمعذرة لأنني أكره الكذب مثلك .

وهى إجابة ربما تلاشت معها أحلامي ، وأقصتني عن المجد والنور . ولكنه لم يطرح ذلك السؤال قط ، فظل من هذه الناحية على غموضه وظللت على قلقي . ويوما استدعتني الملكة تيى إلى استراحتها ، وراحت تتفحص حسدى باسمة ثم قالت :

ـــ اعتنى بنفسك ففى بطنك تدب حياة ستنضم عاجلا إلى تاربخ هذا الوطن .

فلمست في قولها إشارة إلى انتظار ولي العهد فقلت :

ــ صلى من أجلى يامولاتي .

فقالت بثقة :

ــ أمامك عمر طويل .

فقلت بإشفاق:

ــ لاحيلة لي في ذلك .

فقالت محذرة:

ــ لا تسلطي الخوف على فكرك .

فقلت كالمتشكية :

ــ لن أسأل عما ليس في طوق البشر .

فهمست:

الملكة ليست كسائر البشر!

إنها تحطم وسائل دفاعى . امرأة قوية و داهية و جديرة بما يصفها أبى به من عظمة . وزوجى يحبها لدرجة مثيرة ، وهى تعتبره ملكها و حدها حتى بعد زواجه . وشعرت أننى مازلت أرسف فى أغلالها . ومضت أنباء الإله الجديد تتسرب إلى الكهنة ومضى الجو يكفهر . وفى تلك الفترة من حياتنا عرفت مدى قوة زوجى المستترة وراء ضعفه الجسدى ، لمست صلابة روحه ، وقوة تصميمه ، وعنف شجاعته ، وصموده أمام التحديات . قال لى مرة :

ـــ إن أحجار الأهرام مجتمعة لاتستطيع أن تثنيني عن هدفي .

فقلت له متأثرة بحماسه:

_ إنى معك في جميع الأحوال .

فهتف :

ـــ لن يخذلنا إلهٰنا .

حتى أبوه وأمه لم يستطيعا أن يزحزحاه عن موقفه . ودعتني تبي إلى لقاء في يوم أعتبره من أخطر أيام حياتي . سألتني :

_ هل شغلك الحمل عن أحزان طيبة ؟

فقلت لها وأنا أتوثب لمعركة:

_ أحزان طيبة هي أحزاننا .

فتساءلت بدهاء :

_ ألم تؤثر فيه كلماتك الطيبة ؟

فقلت بجرأة:

_ كلمات إلهه هي الأقوى .

فقالت بتوجس:

ــ ولكنك لاتبدين حزينة أو قلقة .

فهويت على أغلالي قائلة:

ـــ إنى مؤمنة بما يقول يامولاتي .

بذلك التصريح أعلنت أن حبى للإله أقوى من حبى للعرش وحررت نفسي . و اتسعت عيناها النجلاوان و تساءلت :

_ آمنت حقا بالإله الجديد ؟

ــ نعم يامولاتي .

لكن ذلك يعنى إنكار آلهة مصر ؟

فقلت بحرارة:

_ إنه واحد لا شريك له .

فتساءلت بنبرة غاضبة:

ـــ أليس من حق الآخرين أن يعبدوا آلهتهم ؟

ـــ إنه لا يتعرض للآخرين .

ــ لكنه سيكون يوما الملك الخادم لجميع الآلهة ؟

_ تحن لا تخدم إلا إللها واحدا.

فهتفت:

_ ألا تقدرين عواقب هذا التمرد ؟

فقلت بثقة صادقة:

ــ إلْهنا لن يخذلنا أبدا .

فسألتني بغيظ ومرارة :

ـــ ألم تعديني بالتعاون دون قيد أو شرط ؟

فقلت برقة:

ـــ إنك مولاتي ولكنه الإلله فوق كل شيء .

ورجعت إلى جناحى دامعة العينين ، مجهولة المصير ، ولكن مطمئنة القلب . وسرعان ماصدر الأمر للأمير للقيام على رأس البعثة المشهورة لزيارة الإمبراطورية . وقيل وقتها إنه أريد بها ترويض ولى العهد وتعريفه بواقع إمبراطوريته لعله يرجع عن غيه ! . ولكنى شعرت أيضا بأن تيى شرعت تعاقبنى بحرمانى من زوجى فى وقت أوشكت فيه على الوضع . ولما ذهب ألقى بى فى خضم تجربة جديدة ما تصورتها قط . ماذا حدث فى تلك الأيام ؟ . انطفأ نور الدنيا ولم تعد الشمس تسكب إلا ظلاما . وغزتنى وحدة مخيفة خانقة ، لم يخفف منها ملازمة مربيتى تى ولا غناء الجوارى ورقصهن . واحتوتنى الكآبة ودثرتنى بكفنها .

افتقدت مولای فی کل رکن من أرکان جناحی وفی کل ساعة من يومی . لم أتخيل أنه کان يشغل ذلك الحيز کله من حياتی ، واکتشفت أنه سر حياتی و کنز سعادتی ، لا کمعلم فحسب ، ولکن کزوج وحبيب أيضا . وبکيت ندما علی عمای و جهلی ، و تلهفت علی رجعته لألقی بقلبی تحت قدميه . و حدث فی القصر ماسری عنه بعض همومه ، فقد جاءنی المخاض ، کما جاء الملکة تيی ، فی وقت واحد تقريبا ، فأنجبت أنا ميريتاتون وأنجبت الملکة تو أمين هما سمنخ رع و توت عنخ آمون . ولما عرفت بأننی رزقت أنثی رکبنی الهم والحزن ، و توکد لدی بأن مرکزی يزداد ضعفا أمام امرأة القصر القوية . و ترامت

إلى همسات الحريم بأن لعنة الكهنة قد حلت بي وأنني لن أنجب ذكرا ماحييت .

وفى تلك الأثناء جاءت تادوخيبا ابنة ملك ميتانى لتلعب دورها فى طيبة . وكان الملك أمنحتب الثالث قد سمع بجمالها فطلب الزواج منها دعما لأواصر الصداقة بينه وبين ميتانى . وكانت تيى تدرك بواعث زوجها الحقيقية ولكنها كانت دائما تسلط عقل الملكة العظمى على عواطف زوجها وتهيمن بقوة خارقة على الغيرة مكرسة جل وقتها للحكم . وجاءت تادوخيبا تشق طريق طيبة فى موكب فخم تتبعها ثلاثمائة جارية . تسليت بسماع الأنباء وأنا غارقة فى وحدتى وأحزانى ، وحدثتنى تى عن موكب الأميرة الصغيرة وجمالها ،

_ ولكن لاتعلو على شمسنا شمس في الوجود !

وذاع في جنبات القصر أن الملك العجوز الذّي أخذ المرض يكدره قد هام بالعروس الجديدة التي في عمر أحفاده ، وأنه غرق في بحر العسل . ولكن باله لم يصف طويلا إذ جاءت التقارير عن رحلة ولى العهد لتعصف بأمنه وسعادته . ودعيت للاجتماع بالملك والملكة فهالني أول ما هالني ما حل بالملك من ضعف نتيجة لإفراطه في الحب واللهو . رغم ذلك بدا غاضبا شرسا ، وجعل يهتف :

ـ ياله من فتى طائش.

فقالت تيى:

....يمكن أن نسترد هيبتنا بعرض لجيش الدفاع في أنحاء الإمبراطورية !

فقال لها ساخرا:

__ لقد بدد الأحمق مدخره الموروث من الإجلال ولن يسترده مهما فعلنا

فتساءلت بعد تردد:

_ ألا يجوز أن يأسرهم بلطف أخلاقه ؟

فهتف بي:

_ ما أنت إلا حمقاء مثله .

وقالت لي المرأة الداهية :

_ كان بوسعك أن تعقليه !

فقلت لها وأنا أداري انفعالي:

_ هيهات أن أقدر على ما تعجزين عنه يامولاتي !

فقالت متمادبة في تحديها لي:

_ ولكنك تشجعينه وأنت راضية!

فلوح أمنحتب الثالث بيده مهددا وقال:

ـــ سأخيره حال عودته بين الطاعة وبين الحرمان من ولاية العهد! ورجعت إلى أحزاني مشفية على اليأس . ولكن تي أيقظتني في صهاح اليوم التالي ، ثم همست في أذني :

_,مات الملك يامولاتي .

و ثقل قلبى بالحزن . و جعلت أتساءل ترى هل نفذ الملك وعيده قبل وفاته ؟. وهل يمكن أن تضحى تبى بابنها المعبود ؟!. وفي الفترة التي حمل فيها الجثمان إلى دار التحنيط استدعتنى الملكة وقالت لى وهي ترمقنى من خلال عينيها الحمراوين من أثر البكاء :

ـــ اعلمي أن الكهنة اقترحوا على المناداة بسمنخ رع أو توت عنخ آمون ملكا على أن أتولى الوصاية على العرش .

لم أشك في تلك اللحظة في أنها أنزلت بي عقابها بكل ثقله وعنفه فقلت مستسلمة لقدري :

ــ قرارك دائما يصدر عن حكمة وإنى به راضية!

فتساءلت بقسوة :

_ أتنطقين عن صدق ؟

فأجبت بهدوء اليأس:

_ و ماذا أملك سوى ذلك ؟

فقالت بحدة:

_ غلب الحب الحكمة فرفضت الاقتراح!

فتنفست بعد غرق وأعياني الكلام فسألتني ساخرة :

__ سعيدة ؟

فقلت بأمانة:

ــ نعم يا مولاتي فإني أمقت الكذب!

... هل تعدينني بالدفاع عن العقل والتقاليد ؟

فقلت وأنا أتمزق!

_ لاأستطيع يامولاتي !

فنفخت مغيظة محنقة وهتفت:

__ إنك تستحقين العقاب ، ولكنك جديرة بالإعجاب أيضا ، فلتواحها مصيركما بحكمتكما ولتكن مشيئة الآلهة !

وصرفتني مكفهرة الوجه فعدت إلى جناحي سعيدة رغم الحداد

وانهلت بالقبل على وجه ميريتاتون الصغير . وما لبث حبيبي أن رجع من رحلته بقامته الطويلة النحيلة وأنسه المبدد للظلمات فهرعت إليه وعانقته بكل قوة حبى . وتفرس في وجهى وقتا ثم قال بطمأنينة :

_ أخيرا جاء الحب يانفرتيتي ا

فأذهلني قوله وعزاني وقلت متلعثمة:

_ إنى أحبك من قبل أن تراك عيناى .

فقال باسما:

ــ ولكنك لم تحبيني كزوج إلاهذه المرة ا

فأذهلتني قدرته على قراءة القلوب فلم أنبس . ومثل أمام جثة أبيه قبل الدفن ، ورجع إلى بأثر البكاء في عينيه ثم قال كالمعتذر :

_ الموت يهزني حقا ، ثم إنني لم أحبه كما يجب !

وجلسنا على العرش في جو ملى، بالتربص والتحدى ، وسرعان ما تجلت قوة حبيبي الكامنة كأعظم ما تكون القوة . وبدأ بعرض دينه على رحاله فأعلنوا إيمانهم به . ولم أشك أنا في صدقهم قياسا على نفسي ، ولكن الأحداث أثبتت أن أكثرهم لم يكونوا صادقين ، أو أن إيمانهم لم يبلغ درجة التضحية بالنفس ، باستثناء مرى رع الكاهن الأكبر . ولا أشك اليوم في أن بصيرته الصافية لم تخدع بهم ، وأنها نفذت إلى أغوار قلوبهم ، ولكنه كان يؤمن دائما بأن الحب كفيل بهداية الجميع في النهاية ، وأنهم سيعبرون مرحلة الإيمان السطحي إلى الإيمان الحقيقي عندما يأزف الوقت وكما فعلت أنا في علاقتي الزوجية به . بل أقول أكثر من ذلك بأن نفرا منهم اقتنعوا بعدم أهليته للعرش فحلموا بأن يخلفوه في ذروة الأزمة ، منهم حور محب ، بل منهم أبي

آى نفسه ، وليس الحدس مرجعى الوحيد فى تصورى هذا ولكنى استخرجته بفطنة من بعض المواقف أو فيما عرض من حوار مثير فى أيام الهزيمة . لذلك أراحنى جدا اختيار الكهنة لتوت عنخ آمون دونهم ، وإن كنت أشك فى أنهم يئسوا حقا من تحقيق أحلامهم بطريقة أو بأخرى . على أى حال بدأ حكمنا فى ذلك الجو المتوتر ، ولكننا كنا سعداء رغم كل شىء ، وأخذت ميريتاترن تحبو على حين تكونت ثمرة جديدة فى بطنى نتيجة للحب الكامل هذه المرة . ولم يعرف امرأة غيرى رغم أنه ورث حريم أبيه كما تقضى التقاليد ، وفيه الميتانية الجميلة تادوخيبا .

وزار تنا الملكة الوالدة تيي فتوقعت متاعب من نوع ما . وصح ظني فقالت لابنها على مسمع مني :

_ أيها الملك ، إنك تهمل الحريم ..

فقال زوجي ضاحكا:

_ إنى موحد في الحب كما في الدين!

فقالت بجدية:

__ ولكنك مطالب بالعدل . ولا تنس تادو خيبا ابنة صديقنا تو شراتا فهي تستحق الرعاية إكراما لأبيها ..

و نظرت نحوى فزاغ عنها بصرى وأنا فى غاية الضيق فقالت بدهاء: ــــ نفر تيتى تئبت كل يوم أنها جديرة بأتْحَرش فلعلها توافقنى على رأيى ..

فواظبت على صمتى كاظمة غيظى على حين راحت تحدث عن واجبات الملكة . ولم أستطع أن أقهر رغبتي في زيارة الحريم ، في الظاهر للمعارف وفي الحقيقة لرؤية الأميرة الجميلة . ووجدتها جميلة حقا ولكن ثقتي بنفسي لم تتزعزع ، وتبادلنا كلمتين للمجاملة وافترقنا عدوتين سافرتين . وفي اليوم التالي جالست زوجي في جوسق بالحديقة وإذا بي أسأله :

_ ماذا تنوى بالنسبة للحريم ؟

فاجابني ببساطة:

ـــ لارغبة لي فيه!

فقلت باحتجاج:

_ ولكن الملكة الوالدة لاتكترث للرغبات!

فقال بغموض:

ـــ إنها مولعة بالتقاليد!

فقلت بوضوح:

_ أما أنت فإنك عدو التقاليد الأول .

فضحك بسرور وقال:

_ صدقت ياحبيبتي!

وأظن أنه في ذلك الوقت تمت المقابلة المثيرة بيني وبين كاهن آمون الأكبر. تمت بناء على طلبه و بوساطة أبي . وقال لي :

_ مولاتي ، لعلك تعلمين بما جئت من أجله ؟

فقلت له دون موارية:

_ إنى مصغية إليك أيها الكاهن الأكبر.

فقال برجاء:

ـــ ليعبد الملك ما يشاء من الآلهة ولكن لحميع الآلهة وعلى رأسها آمون حق في الرعاية .

فقلت:

ـــ إنما لا نتعرض بسوء لأي إله .

فقال برقة:

ـــ إنني أطمح إلى دفاع الملكة عنا عند الضرورة !

فقلت بصدق:

... لا أستطيع أن أعد إلا بما يسعني الوفاء به .

فقال بأسى :

ـــ كان أبوك واحدا منا وبيني وبينه صداقة لاتنفصم عراها .

فقلت:

ـــ بسرنى أن اسمع ذلك .

و ذهب الرجل و لا شك عندى فى أنه أضمر لى عداوة ثابتة . و كرس الملك حياته كلها لرسالته ، داعيا للحب بالحب ، نافيا العنف و القهر و العقاب ، مخففا الضرائب عن الفقراء ، حتى آمن الجميع بأن عهدا جدبدا من الخير يحل بأرض مصر . وحاءنى المخاض فولدت ابنتى الثانية سيكيتاتون فخاب رجائى للمرة الثانية فى إنجاب ولى للعهد . و كثر الحديث عن سحر الكهنة ولكى زوجى أحب المولودة من أول نظرة وقال لى مواسيا :

ــ سيجيء ولي العهد في حينه لاقبل ذلك .

وكمل تشييد معبد جديد لإللهنا الواحد في طيبة ، وذهبنا في موكب لافتتاحه ، وإذا بالكهنة يجمعون أذنابا لهم فتظاهروا في طريق الملك

وهتفوا لآمون . واستاء القصر لذاك التحدى السافر ، وسهر الملك في الشم فة مغتما على غير العادة ، وراح يخاطب طيبة قائلا :

_ طيبة ، يا مدينة الشر والأشرار ، يا مثوى الإله الكاذب والكهنة الفاسقين ، لا أريدك بعد اليوم ياطيبة !

وأمره الإلله ببناء مدينة جديدة له ، ونفذ الأمر فرحل بك على رأس ثمانين ألفا من المهندسين والعمال لتشييد مدينة الإله الواحد . وعشنا في أثناء ذلك هانئين بسعادتنا الشخصية يتربص بنا جو عدائى شدبد التوتر . وأنجبت انحس ياتون ونفر آتون مسلمة أمرى لإلهى خالق الإناث والذكور . وفي الوقت المناسب انتقلنا إلى المدينة الجديدة مصطحبين معنا سمنخ رع وتوت عنخ آمون أما الملكة تيى فأصرت على البقاء في طيبة على كئب من كهنة آمون كيلا يقطع آخر خيط بين العرش والمعاهد .

ولما وجدتني في مدينة النور أخت آتون المتجلية في وحدة هندسية متناسقة استخفني السرور فهتفت في نشوة وبراءة :

_ ماأحمل الجمال ، ماأعذب روحك ياإلهي !

و أفتتحت المدينة بالصلاة في المعبد ، و شدوت بنشيد الإله بصوت لم تسمع المعابد أعذب منه ، ثم ألقى الملك موعظته الأولى الشاملة ، ورسم مرى رع كاهنا أكبر . وجرى نهر الحياة حاملا إلينا بركات السعادة والنصر ، حتى رجع إلى يوما من خلوته يلوح في وجهه الجدو التصميم وقال لى :

_ أمرني إلهي بأن يعبد وحده في البلاد!

وفي الحال أدركت خطورة ما ينطوي عليه ذلك الأمر، فتساءلت:

_ والآلهة الأخرى ؟

فقال بثبات وعيناه تومضان:

ــ سأصدر أمرى بإغلاق معابدها ومصادرة أوقافها .

وران عليّ صمت حتى تساءل:

ــ لا تبدين سعيدة يا نفرتيتي ؟

فقلت بعحلة:

ــ إنك تتحدى كهنة البلاد أجمعين.

فقال ببساطة وثقة:

ـــ إنى على ذلك لقادر .

فقلت بعد تردد:

_ ألا يسوقك ذلك لاستعمال العنف وأنت رجل الحب والسلام ؟

ـــ لن ألجأ إلى العنف ماحييت!

- وإذا تصدوا لأمرك بالمقاومة ؟

ـــ سأوزع الأوقاف على الفقراء ولن أتعرض لمتمرد بسوء قانعا بدعوة شعبي إلى عبادة الإله الواحد وهجر معابد الشرك .

فالكشف عنى العم ، وقبلته وأنا أقول:

ـــ لن يتخلى عنك إلْهك .

وصدر الأمر . وحدث مالم أتوقعه فنفذ بهدوء شامل . فضل الإله ، وبقوة العرش المهيمنة على النفوس . وارددنا ثقة بغير حدود . وفي العصارى كنا ننطلق في عربتنا الملكية بلاحرس نجوب شوارع أخت آتون الواسعة تحف بنا الجماهير المتحمسة والنخيل والصفصاف وأشجار البلخ ، محطمين حواجز الوهم بين العرش والياس ، نكاد

نعرف الناس جميعا بملامحهم وحرفهم والبعض بأسمائهم ، وحلَّ الحب حقا محل الخوف القديم ، وتغنى الجميع بأعذب الألحان القدسية . وهمس أبي في أذتى مرة :

_ أخشى أن تبددوا هيبة الملك .

فقلت له وأنا أضحك :

ـــ نحن نعيش في الحقيقة يا أبي ...

وغزونا البلاد برحلاتنا المقدسة داعين لعبادة الواحد الأحد ، ولم وأذهلنا الخصوم والأصدقاء بانتقالنا الدائم من نصر إلى نصر ، ولم نكترث لما أفضى به إلينا محو رئيس الشرطة من أنباء عن نشاط الكهنة السرى ومحاولتهم الدائبة لتأليب الناس علينا . ولم يعد سلوك مولاى يدهش أحدا لانغماسه الكلى في عالمه المقدس ، أما أنا فأدهشت الكثيرين حتى سلموا بأنني لغز لا يحل . إذ كيف أهيم مثله في عالمه القدسي رغم وعيى الكامل بواقع الشئون الإدارية والمالية للبلاد 1. القدسي رغم وعيى الكامل بواقع الشئون الإيمان والحماس للرسالة . وكنت أشاركه الحياة في الحقيقة وأصدق كل كلمة تصدر عي لسانه الصادق الذي لم يكذب قط . وقال لي ونحن ننتشي بدروة الفوز : وعدما تتطهر الأنفس من أدرانها ستحظى الآذان جميعا بسماع الصوت الإلهي ويعيشون في الحقيقة ا

ذلك كان حلمه ، أن يعيش الناس أجمعون في الحقيقة .

ورجعنا من رحلاتنا الموفقة فوجدنا ميكيتاتون طريحة الفراش تطالعنا بوجه آخر لم نره ولم نعرفه . وجثا إخناتون إلى حانب فراشها وراح يصلي ، وانتحيت بالطبيب بنتو في أقصى الحجرة وقلت له .

نــ البنت نموت يا بنتو .

فأجابني بأسي :

ــ قد بذلت ما في وسعى !

فقلت في حنق وقهر:

- إنهم يريدون بسحرهم أن يحرموه من أحب الكائنات إلى قلبه .. وسمعته يهمس بحرارة مخاطبا إللهه :

لا تفجعني فيها يا إللهي ، إني أحبها ولا أطيق الحياة بدونها ...
 إنها أنضج من عمرها وستكرس حياتها لخدمتك ..

لكن روحها مضت تتسرب رويدا من قبضة حبنا حتى تركتنا متسامية للنجوم . وانكببنا عليها نبكى ونولول مستسلمين لطغيان الحزن . وجعل يخاطب إلهه :

- لماذا ياإلهي ؟، لماذا تمتحن إيماني بشدة لا داعي لها ؟، لماذا تصارحني بقسوة بأنني ما زلت بعيدا عن معرفتك ، لماذا تعاملني بعنف وأنت الرحمة ، وبجفاء وأنت الحبيب ، وبغضب وأنا المطيع ، وبغموض وأنت النور ، لماذا إذن كسوتها بهذا الجمال ومنحتها هذا الذكاء ؟، ولماذا جعلتنا نحبها كل الحب و نعدها لخدمتك في معبدك ؟ وانتشلتنا من حزننا أحزان جديدة شملت داخل البلاد و خارجها مما علمتها بالتفصيل كما ذكرت لي. ولعل أتعس الناس هم الذين يتداوون من حزنهم بحزن أشد . وقابلنا الوزير ناخت وعرض علينا الصورة بحذافبرها . ولا أذكر أن عزيمتي اجتاحتها الكآبة و خامرني القلق ، أما مولاي فقد صمد أمام العاصفة كأنه الهرم الأكبر . وقال بثقة لا حد لها :

وعدتنى قوته الخارقة فانتعشت روحى قاهرة جميع الهواجس والوساوس ، وندمت على صعفى العابر . ولما ساءت الحال أكثر حاءتنا الملكة الوالدة تيى . واحنمعت بنا بعد أن استقبلت رجالنا فى قصرها بجنوب أخت آتون . وبدأت حديثها قائلة :

_ السماء مليئة بالغيوم .

ونقلت بيننا عينيها اللتين أحاط بهما الكبر وقالت :

_ أخذت العهد من رجالك بالوفاء لك في جميع الظروف والأحوال .

فسألتها:

ــ ترى هل داخلك الشك فيهم ؟

فقالت لي بعتاب :

ــ المحن تطالبنا بالتماس اليقين ..

فقال إخناتون:

ــ إلْهي لايبالي بالمحن !

فقالت بحدة:

ــ بل عما قليل ستنفجر الفتن .

فقال بثقة :

ـــ لن يتخلى عنى إلْهي أبدا .

فقال بأسى :

ــــ أمى ، إنك غير مؤمنة ..

-- لا تتحدث عما بينى وبين الغيب ، حدثنى كملك وأصغ إلى كملكة ، أقول لك تحرك قبل فوات الأوان ، لديك جبش الحدود بقيادة ماى فمره بالزحف على الإمبراطورية ، ولديك قوات الحرس والشرطة فمرها بضرب الفساد والمفسدين ، أسرع قبل أن يتهاوى عرشك أنقاضا ..

فقال بحدة:

_ لن آمر بسفك نقطة دماء واحدة .

فقالت في أسى عميق:

ــ لا تجعلني أندم على تمسكى لك بالعرش.

فهتف:

ــ لا يهمني العرش إلا باعتباره الوسيلة لخدمة الإلله!

فنظرت إلىّ تيي وقالت :

- تكلمي أيتها الملكة فلعلى لم أخترك إلا من أجل هذه الساعة .. فقلت بحماس لا يقل عن حماس مولاي :

ــ لن يخذلنا إلهنا ياأماه .

فاكفهر وجهها المتغضن وقالت بغصب :

ــ استحكم الجنون وانتصر القدر .

وغادرت تبى أخت آتون حزينة مريضة ، ولم يمتد بها العمر في طيبة إلا أياما ثم فاضت روحها الكسيرة . ولم تمض أيام حتى طلب آى وناخت وحور محب مقابلة الملك فاستقبلناهم في الحال . ولما نظر إخناتون في وجوههم قال باسما :

ـــ لم تجيئوا لخير .

فقال آي :

جئنا يا مولاى مدفوعين بولائنا للعرش والوطن والإمبراطورية! نتساءل إخناتون:

_ وماذا عن إيمانكم بخالق كل شيء ؟

فقال آي:

... مازلنا نؤمن به ولكننا مسئولون عن دنيانا يامولاي ..

فقال إخناتون:

_ لاقِيمة لهذه المسئولية إذا لم تنبع من ذلك الإيمان ..

وعند ذاك قال ناخت :

ـــ الغدو يتوغل في الإمبراطورية ، والولايات أعلنت تمردها مي البلاد ، ونحن في الواقع محصورون في أخت آتون ..

فقال الملك بإصرار:

ـــ لن يتخلى عنى إللهي ، وبالتالى لن أتخلى عن رسالته ! وهنا قال حور محب :

_ سوف تفرض الحرب الأهلية نفسها علينا!

فقال إخناتون :

ـــ لن تقوم حرب أهلية .

فتساءل حور محب:

ـــ هل نترك حتى نذبح كالأغنام ؟

فقال الملك:

_ سألقى الجيش المهاجم وحدى بلا سلاح .

فقال حور محب بحزم:

-- سيقتلونك ثم يقتلوننا ، وطالما أنك مستمسك بديانتك فتنح عن العرش وتفرغ لها ..

فقال بوضوح:

ــ لن أتنحى عن عرش الإله فهي الخيانة !

ثم نظر في وجوههم وقال:

_ إني أعفيكم من الولاء لي .

فقال حور محب:

_ سنترك لجلالتكم مهلة للتدبر .

وذهبوا مخلفين وراءهم إنذارا نهائيا . وماكنت أتصور أن يلقى فرعون مثل ذلك الهوان . وتساءلت في حيرة بالغة حتى متى يضن علينا إللهنا بالنصر ؟. وعجبت لإيمان حبيبي الراسخ ، واقتنعت بأنني ما زلت دونه بمراحل بخلاف ماكنت أعتقد .

وجاء حور محب لمقابلتي على انفراد وقال لي :

_ افعلى شيئا ، افعلى ما بوسعك ، سيقتل حتما إذا أصر على موقفه ، بل قد يقتل بيد أحد رجاله !، عليك أن تفعلى شيئا قبل فوات الفرصة ..

و تخایل لعینی شبح الموت والهزیمة ، تسلل وهن إلی إرادتی ، وشیء من الشك إلی عقیدتی ، وتساءلت فی حیرة معذبة كیف أنقذ حبیبی من الموت ؟!. و خطر لی أننی إذا هجرته فلعل ثقته بنفسه تتزعزع فیذعن لمشیئة رجاله ، ویتنحی عن العرش . أجل سیؤمن بأننی خنته كالآخرین ولكننی لم أكن أملك و سیلة أخری . هكذا أقدمت علی هجر حبیبی وقصری ، فلذت بقصری الخاص فی شمال أخت آتون باكیة

العينين ، دامية القلب ، وزارتنى أختى موت نجمت ، وأخبرتنى بأن الملك مصر على عناده ، وأنهم و جدوا الحل فى إخلاء المدينة وإعلان ولائهم لفرعون الجديد ، وبذلك تنعدم دواعى الحرب الأهلية ، ثم سألتنم بخيث :

ــ متى ترحلين إلى طيبة ؟

وكنت أقرأ افكارها بوضوح فقلت بخشونة :

__ لقد تحققت نبوءة ، وآن للنبوءة الأخرى أن تتحقق ، فاذهبى بسلام ، أما أنا فسأبقى إلى جانب زوجى وإلهى ..

وغمرتنى أيام متقلة بالتعاسة اقتلعت من قلبى جميع ذكريات السعادة الماضية فكأننى لم أذق للسعادة طعما على مدى عمرى . قبعت فى قوقعة الشعور بالإثم ، أرقب من نافذتى مدينة النور وأهلها يبادرون إلى هجرها قبل أن تحيق بهم اللعنة . ترامى إلى هديرهم وبكاؤهم ، وصراح أطفالهم ، ونباح كلابهم ، ورأيت تياراتهم لا تنقطع ، ماضية فى طوابير ، حاملة ما خف من متاعهم ، مندفعين نحو النيل أو الشمال أو الجنوب ، وأغلقت النوافذ والأبواب ، تابعتهم نظراتى الحائرة حتى آحر حى ، ثم رأيت الوحشة تحل محلهم فى المساكن والحدائق والشوارع و تطوق الأشجار ، ورأيت الفاء يحلق فى المعوم مرسلا نذره الساخرة ، فهتفت من قلبى الجريح :

- أخت آتون .. يامدينة النور .. يامدينة الوحدة القاتلة .. قاسمينا الحظ والمصير .. أين التراتيل والألحان .. أين قبلات النصر والحب .. أين أنت ياإلهي الواحد .. لم تحليت عن المخلصين ؟!

خلت المدينة . وأخذت تلفظ أنفاسها ساعة بعد أخرى . لم يبق من أهلها إلا سجينان ، حبيبي وأنا ، ونفر من حرس الأعداء . ترى فيم يفكر ، وكيف يراني ، وإلام آل إيمانه ؟ . وقررت أن أذهب إليه لنتكاشف و نصفى الحساب ولكني منعت من مغادرة القصر ، وحيل بيني وبين مراسلته ، فأدركت أنه لم يبق لي إلا انتظار الموت في السجن . وكذلك حبيبي ومولاى . وسعيت إلى إرسال رسائل بمطالبي البسيطة والمشروعة إلى الملك الجديد أو أبي آى أو القائد حور محب ، ولكن رئيس الحراس قال لي بحزم وخشونة :

ــ إنك ممنوعة من أى اتصال بالخارج.

فتصبرت على أيام الوحدة والحزن بلا أمل . وغفلت عن معالم الزمن غارفة في تأملات حزينة وصلوات متواصلة حتى استرددت إيماني خالصا بإلهي رغم كل شيء ، بل و آمنت بأن النصر النهائي سيكون له وإن طال الانتظار . وكبر على أن أتصور أن حبيبي الذي عرفته أكثر من أي إنسان يمكن أن ييأس أو ينهزم أو يفقد ثقته في إلهه الذي خصه بمناجاته دون الناس جميعا . لقد فقد العرش والأتباع والمجد الدنيوي ولكنه ظل ولا شك هائما في الحقيقة مطلعا على الأبدية ، سعيدا بين يدى إلهه لا يجد وحدة ولا وحشة ، منغمسا في الأنس والرضا والحب .

ولذلك فعندما جاءني رئيس الحرس وقال بصوته الجاف : __ أذن لى أن أبلغك بأن الملك المارق قد فارق الحياة بعد مرض طويل ، وأن بعثة ملكية قامت بتحنيطه ودفنه تبعا للمراسيم الفرعونية . لم أصدق كلمة مما قيل . حبيبي لم يمرض مرضا أفضى به إلى الموت . لعلهم اغتالوه ليؤمنوا نصرهم الزائف ، ففارق الدنيا المارقة ليستقر في قلب الخلود . وسوف ألحق به ذات يوم ليطلع على براءتي ويمنحني عفوه ويجلسني إلى جانبه على عرش الحقيقة .

* * *

وتلاشى الصوت العذب بعد الجهد ، ولبثت مولاتى صامتة حزينة جليلة تتخدى المحن . ودعتها بكل إكبار ، وانصرفت على رغمى مفعم القلب بأريج الجمال الفاتن والذكريات الآسرة .

华 柒 柒

ولما رجعت إلى سايس استقبلنى أبى بشوق ، وراح يسألنى عن رحلتى وأجيبه ، وامتد الحوار بيننا أياما وتشعب . وقلت له كل شىء تقريبا ، ولكنى أخفيت عنه أمرين .

ولعي المتزايد بالأناشيد .

ن وحبى العميق لتلك السيدة الجميلة :

مؤلفات الاستاذ نجيب محفوظ

لبعه	تاريخ آخر ه	خ اول طبعة	تاري	اسم الكتاب
		1988		مصر القديمة
1171	العاشرة	1147	مجموعة	همس الجنون
1271	العاشرة	1771	واية تاريخية	عبث الاقدار و
1111	العاشرة	1187	وابة تاربخية	رادوبيس و
1171	الماشرة	3311	رواية تاريخية	كفاح طيبة
341	الثانية عشرة	1180	رواية	القاهرة الجديدة
1111	العاشرة	1987	رواية	خان الخليلي
1221	العاشرة	1184	رواية	زقاق المدق
3886	الثانية عشرة	1187	رواية	السراب
1148	الرابعة عشرة	1981	رواية	بداية ونهاية
7251	الثانية عشرة	1907	رواية	بين القصرين
1178	الثانية عشرة	1904	روآية	تصر الشوق
3411	الحادية عشرة	1104	رواية	السكرية
111.	التاسعة	1171	رواية	اللص والكلاب
3471	الثامنة	1175	رواية	السمان والخريف
1171	الخامسة	1177	مجموعة	دنيا الله
3421	الثامنة	1178	رواية	الطريق
7851	السابعة	1170	مجموعة	بيت سيء السمعة
1111	السابعة	1170	رواية	الشحاذ
111	السادسة	1177	رواية	ثوثرة فوق النيل
1111	الخامسة	1177	رواية	مسيراماد
1110	السابعة	1771	د مجموعة	خمارة القط الاسو
3821	السادسة	1171	مجبوعة	تحت المظلة

خسر طبعسة	تاريخ آ	تاريخ أول طبعة		امسم الكتاب	
YAPI	السابعة	1471	مجموعة	حكاية بلا بداية ولا نهاية	
1447	السادسة	1471	مجموعة	شهر العسل	
144.	الخامسة	1477	رواية	المرايا	
194.	الرابعة	1975	رواية	الحب تحت المطر	
1441	الخامسة	1944	مجموعة	الجريمة	
TAP!	السابعة	1478	رواية	الكرنك	
TAP!	السادسة	1940	رواية	حكايات حارتنا	
1441	الثالثة	1940	رواية	قلب الليل	
1985	الرابعة	1940	رواية	حضرة المحترم	
1940	الرابعة	1944	رواية	ملحمة الحرافيش	
1944	الرابعة	1979	مجموعة	الحب فوق هضبة الهرم	
VARI	الرابعة	1979	مجموعة	الشيطان يعظ	
YAPI	الثانية	194.	رواية	عصر الحب	
1447	الثالثة	1441	رواية	أفراح القبة	
YAPI	الثالثة	7481	رواية	ليالي ألف ليلة	
1984	الثالثة	1481	مجموعة	رأيت فيما يرى النائم	
1940	الثانية	1481	رواية	الباقي من الزمن ساعة	
1940	الثانية	1444	كام)	مام العرش (حوار بين الحكام)	
		1945	رواية	رحلة ابن فطومة	
		1446	مجموعة	التنظيم السرى	
		1940	رواية	العائش في الحقيقة	
		1940	رواية	يوم مقتل الزعيم	
		1944	رواية	حديث الصباح والمساء	
		1144	مجموعة	صباح الورد	
				تحت الطبع	
			رواية	قشتمر	
			مجموعة	الفجر الكاذب	

رقم الإيداع ١٨١٢ ـــ ٨٥ الترقيم الدولي ٦ ـــ ١٨٦٦ ـــ ١١ ـــ ٩٧٧

مكت بتمصيت ۳ شارع كامل مثق - الغجالة



دار مصر للطباعة سيد جوده السحار وثركاه